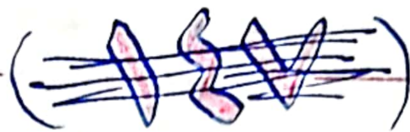
رسالة

في الوصايا العشر من سورة الأنعام

بقلم
صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد الله الحظارى
«واعظ قنا «سابقا»»
المتوفى سنة ١٩٤٤ م



التعريف بالمؤلف

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد:

فهذه رسالة في الوصايا العشر نقام صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد الله الحظارى بلدًا الأزهارى بنسبا المولود في قرية الحظارة مركز قوص سنة ١٩٠٣ وقد حفظ القرآن الكريم في قرية الحلة على يد الشيخ عبد الله الجلادوى رحمه الله. ثم حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد أسيوط الديني. ثم على الشهادة العالية من كلية أصول الدين ثم على العالمية في إجازة الدعوة والإرشاد وها نحن نقدمها هدية لأحبابه وأبنائه راجين من الله العلى العظيم أن يجعلها في ميزان حسناته إنطلاقا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له

رواه مسلم. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

(كلمة الافتتاح)

الحمد لله الفرد الصمد. الذي لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد. سبحانه أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا. ماكثين فيه أبدا. والصلاة والسلام على نبي الرحمة القائل: (إنما هما اثنتان الكلام والهدى. فأحسن الكلام كلام الله وأحسن الهدى هدى محمد.) صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

(أما بعد)

فإني استعين الله على هذا المجهود الضئيل. طامعا في معونته أن يجعله فاتحة أمر جليل في عهد ترى فيه شعب الضلالات قد تفشت. وتكاليف الحياة قد تشعبت. نحن يدري أحدنا أين يأخذ ولا أين يدع. لهذا استخرت الله فيما أتقدم به إلى لجنة الامتحان النظري. لنيل شهادة العالمية. مع إجازة الدعوة والإرشاد. فخار لي أن أكتب في ثلاث آيات من كتابه الكريم. الذي فيه عزتنا وسعادتنا. تجمع وصايا عشرا عساها أن تكون تذكرة لمن يذكر. وعبرة لمن يرجع إلى سورة الأنعام. فيتلوا قول الله تعالى (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ.) إلى قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ذلك لأنك بنظرة تجلى في هذه الآيات. ترى أنها تكاد تكون جامعة لأصول الشرائع التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام. حتى لقد روى عن كعب الأحبار أنه قال: (إن وصايا سورة الأنعام. هي وصايا التوراة. وأنها أول آيات في التوراة.)

وقد راعيت في الكتابة عنها طريق التوزيع. فجعلت كل وصية قائمة بنفسها. وإن كانت الوصية منتظمة لمسائل شتى. جعلت لكل مسألة عنوانا مستقلا. ولقد عنيت بالمسائل التوحيدية. وكيف كانت دعوة الرسل إلى الله. وبالنظر في الحالة الاجتماعية. وما تمس إليه الحاجة من إصلاح وغيره. لأن هذا هو المقصود من وضع هذه الرسالة.

ولم يكن من غرضي أن أتتبع في هذه الآيات كل أقوال المفسرين وآرائهم، بل درجت على أرجح الأقوال وما استحسنته منها.

وإني أرفع بعون الله تعالى هذه الرسالة إلى أعضاء لجنة الامتحان الموقرة، معتمدًا عليه مستمدًا منه التوفيق، والسداد فيما أقول، راجيًا منه حسن الإجادة والقبول، إنه سميع الدعاء، قريب مجيب.

(وها هي الآيات الكريمة)

قال تعالى ولقوله أصدق القائلين (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞

(وجه اتصال النظم الكريم بما قبله)

قص الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة، سورة الأنعام على رسوله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ما كان عليه مشركو العرب وغيرهم من عقائد فاسدة وأباطيل شائنة، كنسبتهم لله شركاء من الجن، وقولهم الملائكة بنات الله، وأن لله ولدًا إلى غير ذلك من عقائد لا تمت إلى الحقيقة بسبب. ولم تكن لهم في ذلك حجة مقبولة ولا برهان سديد، إذا ما حزبهم الأمر وواجهتهم الحجة الصحيحة، إلا قولهم: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون.

وقد بلغ

وقد بلغ بهم الجهل إلى أن يقسموا ما خلق من الحرث والأنعام بين الله وأصنامهم فما كان لله فهو يصل إلى الشركاء وما كان للشركاء فلا يصل إلى الله (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

وقد بلغت القسوة من قلوبهم إلى حد أنهم كانوا يقتلون أولادهم وفلذة أكبادهم بتزيين الشياطين لهم (وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ)

وكانوا يحرمون على أنفسهم ركوب بعض الأنعام والحمل عليها ويجعلون ما تنتجه بعد ولادتها خالصا للذكور دون الإناث إن ولد حيا وإن ولد ميتا فهم فيه شركاء (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ)

والمتتبع لآيات هذه السورة الكريمة يرى أن الله سبحانه وتعالى قد ألزم الكفار الحجة وأقام البرهان على فساد زعمهم وكذب دعواهم وافترائهم على الله ورسوله التحريم والتحليل وأمر رسوله أن يبين لهم ما أحل وما حرم بقوله تعالى (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

وليس ثمة شك في أن هذا دليل على أن المحلل والمحرم إنما هو الله سبحانه وتعالى بطريق الإيحاء وفيه رد عليهم بأن التحليل والتحريم الصادرين منهم ليس من الحق في شيء وإنما هو تقليد لأسلافهم أو اتباع للظن الباطل ولذلك قال تعالى تبكيتا وتسفيها لهم (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) وقد أوضح الله سبحانه وتعالى عجزهم عن إقامة الحجة مبينا أن الحجة القائمة له تعالى فقال مخاطبا النبي (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ)

ولما بين الله تعالى هذه الحجة على المشركين الذين حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه هو

عليهم ، ورد عليهم شبههم التي احتجوا بها على شركهم وافترائهم ، وبين لهم ما حرمه على عباده من الطعام ، حينئذ ناسب أن يبين لهم أصول المحرمات ، ومجامعها في الأعمال والأقوال ، وما يقابلها من أصول الفضائل والبر ، فنزلت هذه الآيات التي هي موضوع كلامنا ، ولننتقل الآن إلى الشرح .

المفردات في قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

تعالوا : أمر من التعالي ، وأصله أن يقوله من في مكان مرتفع لمن هو دونه ليتعالى ويصعد إليه ، ثم توسعوا فيه فاستعملوه في الأمر بطلب الإقبال مطلقاً فيكون من استعمال المقيد في المطلق ، وهو ضرب من ضروب المجاز المرسل والعلاقة هنا الإطلاق والتقييد ، ويجوز أن يراد منه التعريض بهم لأنهم في أسفل درك من الجهل والضلال إذ لو سمعوا ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم لهم لرقوا إلى ذروة العلم وقمة الشرف .

أتل : مشتق من التلاوة بمعنى القراءة - حرم - مشتق من التحريم بمعنى المنع ولا يكون إلا من الشارع كما في قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾

- الرب - هو بالألف واللام لا يطلق على غير الله عز وجل وقد يخفف ، ورب كل شيء مالكه ومستحقه أو صاحبه ، والجمع أرباب وربوب كما في القاموس قال تعالى ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١) ولم يكن من حقه أن يجمع لأنه ليس هناك فرد غير الله تعالى لكن أتى بلفظ الجمع على حسب اعتقادهم لا على حسب الواقع ونفس الأمر ، وهو في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام كما قال الراغب ، واستعير للفاعل ، والرب يطلق على الله سبحانه وتعالى ولا يطلق على غيره إلا مقيداً بإضافة نحو رب الدار ورب الأسرة ومنه ما حكاه الله تعالى عن سيدنا يوسف عليه السلام ، وهو قوله تعالى ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ والمراد بذلك سيده ، وقوله تعالى ارجع إلى ربك ، وحيث انتهينا من الكلام على المفردات فلنتكلم عن الإعراب باختصار .

(١) سورة يوسف

- الأعراب -

(١) أن تكون - ما - في قوله تعالى ما حرم موصولة بمعنى الذى و منصوبة بفعل التلاوة ، أى اتل الذى حرمه ربكم فالعائد محذوف .

(٢) أن تكون منصوبة بحرم على أن ما استفهامية . والمعنى أتل أى شئ حرم والجملة في محل نصب مفعولا لأتل . وذلك لأن التلاوة نوع من القول .

(٣) أن تكون ما مصدرية والمعنى أتل تحريم ربكم . ونفس التحريم لا يتلى لأن ما هو مصدر وقع موقع المفعول به أى أتل محرم ربكم الذى حرمه .

- عليكم - نختار فيها أحد وجهين .

(١) إنه متعلق بأتل لأنه الأسبق وهو اختيار الكوفيين .

(٢) " " بحرم لأنه أقرب وهو اختيار البصريين .

(المعنى)

قل يا محمد لهؤلاء الذين ركدت أحلامهم ، وأهملوا عقولهم فعدلوا بربهم الأوثان والأصنام ، واتبعوا الخرص والتخمين في دينهم ، وسلكوا سبيل الهوى فيما يحرمون على أنفسهم وما يحللون . وزعموا أن الله حرم عليهم ما هم محرموه من حرثهم وأنعامهم على ما ذكرته فيما أنزلت عليك . هلموا إلى وأقبلوا على أتل وأقرأ ما حرم ربكم عليكم مما أوحاه إلى من العلم الصحيح والحق اليقين لا الباطل تخرصا كخرصكم على الله الكذب والفرية ظنا . ولكن وحيا من الله أوحاه إلى فإنه الخالق جل وعلا هو صاحب الحق في التحريم والتشريع وإنما أنا مبلغ عن الله بإذنه أرسلني لذلك وعلمني ما لم أكن أعلم وأيدني بالمعجزات الباهرات والآيات البينات . ولنبدأ بالوصية الأولى النهى عن الشرك

الوصية الأولى النهى عن الاشراك :

قال تعالى (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

الاعراب :-

ليس من غرضنا أن نلم بأوجه الأعراب وأقوال المفسرين وتصحيح آراء البعض وتفنيد

أقوال الآخرين بل مقصدنا لمس المعاني المتبادرة من أوجه الكلام من غير تكلف لذلك نختار أن تكون (أن) تفسيرية و (لا) ناهية فيكون المفسر بالفتح هو (ما حرم) والتفسير هو التكاليف العشرة المذكورة في هذه الآيات الواردة بعد أن فما كان منها نهي فالتحريم فيه ظاهر وما كان منها أمر فالتحريم فيه راجع إلى ضده.

وبعض المفسرين قدر في المفسر بالفتح محذوفا معطوفا على أتل ما حرم فكأن المعنى أتل ما حرم وما أوجب ثم جاء التفسير للمحرم والموجب على التوزيع وقوله (شيئا) يحتمل أن يكون مصدرا مؤكدا العامل والمعنى لا تشركوا بربكم إشراكا ما أو مفعولا به أي لا تشركوا بربكم شريكا ما صنما أو غيره.

- المفردات -

الشرك - اتخاذ غير الله شريكا له في العبادة وهو الشرك الأكبر الذي قال الله فيه ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾(1) أما الشرك الأصغر فهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور ومنه الرياء والنفاق المشار إليه في قوله صلى الله عليه وسلم (الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا) يريد به الرياء والنفاق.

-- المعنى --

بدأ الله سبحانه وتعالى هذه الوصايا العشر بأكبر المحرمات وأفظعها وأشدها أثرا في إفساد العقول والفطر وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى سواء أكان باتخاذهم الأنداد له أو الشفعاء الذين يشفعون لهم عند الله أم باتخاذ الأرباب الذين يشرعون الأحكام ويتحكمون في الحلال والحرام (فالإشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا فيما لا يقدر العبد عليه)(2)

وقد

(1) سورة النساء - (2) رسالة الإمام الشيخ محمد عبده

وقد حذر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز من الشرك في غير ما آية فقال جل شأنه ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾(١) ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢) وقد أخبر الله تعالى بأنه يغفر بمشيئته كل الذنوب ما عدا الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٣) وأن المشرك مهما قدم من خير في دنياه فلن يفيد شيئا في أخراه ولا يقيه عذاب الجحيم لأن عمله لا يقام له وزن يوم القيامة ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾(٤)

وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن أكبر الكبائر الشرك بالله قال عليه الصلاة والسلام ﴿ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله قال (الإشراك بالله)﴾(٥)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيبا لمن قال له أي الذنب أعظم عند الله قال (أن تجعل لله ندا وهو خلقك)(٦) فالآية الكريمة ترشدنا إلى أنه لا يصح أن يشرك بالله شيء من خلقه مهما عظم خلقه كالشمس والقمر وسائر الكواكب أو عظم قدره كالملائكة والأنبياء والصالحين فعظم الأشياء إنما يكون بنسبة بعضها إلى بعض وهذا لا يخرجها عن كونها من خلق الله وتكوينه ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾(٧) والنهي عن الإشراك أمر بضده وهو توحيده تعالى وقصر العبادة عليه ويلزم ذلك كله اتباع ما شرعه الله لنا من الأحكام على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم.

وذلك هو التوحيد المقصود بالذات الذي من أجله جاءت النبوات والمهم الأعظم الذي بعث له المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وها أنذا أذكر طرفا من دعوة بعض الرسل إلى الله ليكون هديهم نبراسا لنا فيما نحن قادمون عليه بإذن الله من هدى الناس وإرشادهم إلى الطريق القويم فنقول وبالله التوفيق.

(دعوة الرسل إلى التوحيد)

من لدن سكن آدم أبو البشر عليه السلام الأرض ووجد له أولاد ترى الله يتعهدهم من حين لآخر بإرسال نبي منهم بلغتهم التي يتكلمون بها ولسانهم الذي به ينطقون.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(٨)

---

(١) سورة المائدة (٢) سورة لقمان (٣) سورة النساء (٤) سورة الفرقان (٥)(٦) صحيح البخاري (٧) مريم (٨) ابراهيم

واقتضت حكمته تعالى أنه لا يدع أمة من الأمم بدون منذر لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١)

والذي يتأمل تاريخ الرسل الذين عرضه لهم القرآن الكريم يجدهم متآزرين على دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى والإيمان بالبعث والجزاء والإيمان بالرسل.

وكانت الدعوة إلى توحيد الله تعالى والاعتراف بربوبيته وقصر العبادة عليه دون غيره مما خلقه هي أساس كل رسالة، وقد بذل الرسل في سبيل هذه الدعوة أكثر وقتهم وخاطروا بمهجهم وأرواحهم في تخليص الناس من الشرك والأوهام وإخراجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والاعتراف بوحدانية الملك الديان.

نوح عليه السلام

فهاك مثلا سيدنا نوحا عليه السلام نجد أول شيء بدأ به قومه أنه دعاهم إلى عبادة الله وحده ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢)

ولم يكن استئصال شأفة الكفر التي نبتت في قومه وشبوا وشابوا عليها بالأمر الهين السهل الذي يمكن أن ينتزع من نفوسهم بمجرد أن يسمعوا من نوح عليه السلام أن يقول لهم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. وفيهم من امتلأت نفوسهم بحب الجاه والسلطان والسمعة والاستئثار من الذين أترفوا في الحياة الدنيا، وهم الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣)

استمر نوح على دعوته ليلا ونهارا سرا وإعلانا فما كان من قومه إلا أن أخذهم الغرور والخوف من ضياع سلطتهم فأجابوه بقولهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤) ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ من غير تفكير ولا روية. وقد اتخذ نوح مع قومه كل طرق الإرشاد والإنذار من عاقبة أمرهم إذا استمروا على كفرهم وعبادتهم لغير الله فمرة يخوفهم بسوء مصيرهم ويذكرهم بأن أجل الله الذي حدده لهلاك الأمم الجائرة الخارجة عن دعوة الرسل إذا جاء لا يؤخر ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٥)

وقد وعدهم بأنهم إن رجعوا إلى الله واستغفروا من ذنوبهم فإن الله يجازيهم على هذا خير

(١) سورة فاطر (٢) الأعراف (٣) سورة سبأ (٤) هود

الجزاء

الجزاء في دنياهم بأن يرسل السماء عليهم مدرارا ويمددهم بأموال وبنين ويجعل لهم
البساتين الفيحاء والأنهار العذبة. ثم أخذ يذكرهم بما خلق الله من سماء وأرض وكيف
خلق بني آدم على أطوار شتى وحالات مختلفة علهم يؤوبون إلى رشدهم ويتفكرون
في خالقهم. وبعد هذا كله أصروا على عصيانه ومخالفة دعوته وومى بعضهم بعضا بالباطل
(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)[1]
وهي أسماء الأصنام كان يعبدها قوم نوح. ولما عيل صبره عليه السلام ونفدت جميع
أساليب الدعوة إلى الله ورأى إصرارهم على الكفر ويئس من إيمانهم أخذ يدعو عليهم
كما حكى الله عنه في ختام السورة المسماة باسمه (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ
مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۞
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۞)[2] فاستجاب الله دعاءه وأمره بصنع الفلك فركب فيها هو ومن آمن
معه وأغرق الكافرين. قال تعالى في شأنه (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ
وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ۞)[3]
وبعد أن أهلك الله الكفار من قوم نوح بكفرهم وأنجى المؤمنين لطاعتهم وإيمانهم وجعلهم
خلائف في الأرض ليسكنوا فيها ويعمروها وتداولت الأيام وتغيرت الأحوال وفسدت
الأخلاق وعبد الناس الأوثان من دون الله وهنا عادوا لعبادة قوم نوح حيث عبدوا
ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا. بعث الله إلى عاد أخاهم هودا فأرشد قومه هود عليه السلام
إلى وجوب الاعتراف بوحدانية الله تعالى والإقرار بأنه لا إله غيره هو المبدئ المعيد
المتصرف في ملكه يفعل ما يشاء ويختار وأنه يجب أن يخص بالعبادة وحده دون
سواه. (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞)[4] أي ليس
عندكم مسكة من عقل تحول بينكم

استمر هود عليه الصلاة والسلام يدعو قومه وينذرهم ويحذرهم بأس الله
ويذكرهم بنعم الله عليهم التي لا تعد ولا تحصى. إذ زادهم في الخلق بسطة ووهبهم

(١) و(٢) سورة نوح (٣) سورة يونس (٤) سورة الأعراف

القوة، وجعلهم سكان الأرض من بعد قوم نوح وأسكنهم أرضا تدر عليهم الخيرات الكثيرة، والزرع الذى يعيشون منه، وتنبت لهم الفاكهة والأب متاعا لهم ولأنعامهم، فما كان عليهم إلا أن يتفكروا بعقولهم، ويثوبوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى بارئهم، ويستغفروه مما فرط منهم من إشراك غيره معه فى العبادة لأنهم إذا رجعوا إلى الله وثابوا إليه وأنابوا أرسل المطر عليهم مدرارا وزادهم عزا إلى عزهم ومجدا إلى مجدهم ولكنهم تألبوا على نبى الله ورسوله أن قالوا ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۞﴾(١)

فما كان منه وقد أعيته هدايتهم لتمسكهم بما كان عليه آباؤهم وأسلافهم إلا أن ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ۞ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞﴾(٢)

وانتهى أمر قومه بما تنتهى إليه شرذمة ضلت الطريق المستقيم ورفضت وعظ النبى الأمين ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۞ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۞ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞﴾(٣) فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فأهلكهم الله وأبادهم وأصبحوا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فليس لهم بعد ذلك من باقية وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم عبرة لمن يعتبر إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين.

صالح عليه السلام

أسكن الله الأرض بعد ذلك ثمود وجعلهم خلفاء فيها من بعد عاد يتخذون من سهولها قصورا وينحتون من الجبال بيوتا فأرسل الله إليهم أخاهم صالحا فدعاهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده من غير إشراك أحد معه من خلقه وخوفهم من عذابه وبطشه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٤) ويقول لهم يا قوم اتقوا الله

إنى لكم

(١) سورة هود (٢) هود عليه السلام (٣) الشعراء (٤) هود

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(1) ثم كرر عليهم الأمر بتقوى الله زيادة في الطلب وتذكيرا لهم بما يجب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾(2)

فما كان جوابهم حين سمعوا نصيحة المشفق عليهم إلا أن ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾(3) مع اعترافهم قبل بعثته بأنه عظيم من عظمائهم وأنه كان مرجوا للرئاسة فيهم مأمول الخير من بينهم فلما دعاهم إلى عبادة الله وترك ما كان يعبد آباؤهم رموه بأنه من المسحورين ولما طلبوا منه آية دالة على صدق دعواه قال لهم ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على عملهم ولم يكن ندمهم ندم توبة ورجوع إلى الله وإنما كان ندم خوف من أن يلحقهم العذاب عاجلا فأرسل الله عليهم صيحة من السماء فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(5) ثم أنجى الله الذين آمنوا وكانوا يتقون الكفر والمعاصي من هذا التدمير الشامل والعذاب المدمر ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(6)

إبراهيم عليه السلام

ثم أرسل الله إبراهيم عليه السلام إلى قوم عاكفين على عبادة الأصنام لا يعرفون لهم ربا ولا إلها سوى أصنامهم التي اتخذوها آلهة من دون الله، فأخذ يأمرهم بإخلاص العبادة لله، ويقيم لهم الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة الدالة على سوء صنيعهم بعبادتهم أصناما لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عنهم من الحق شيئا، مستعملا الرفق واللين في دعوته، متأدبا في خطابه مع والده الذي كان كافرا، وإن شئت فاسمع إليه حين يخاطب أباه بأدب جم، ولطف غير محدود، بصيغة تشعر بالشفقة والرحمة عليه إن استمر على عبادة غير الله ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

(1) و(2) و(3) سورة الشعراء (4) الشعراء (5) سورة النمل (6) النمل

يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴿١﴾

فما كان من أبيه بعد ذلك الترفق البليغ واللين الخطاب إلا أن قال له (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴿٢﴾) فلما لم يستطع نبى الله أن يحول بين أبيه وعبادة الأوثان تجنبه وما يعبد فقال (سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ﴿٣﴾) على أنه لم يكن لقومه حجة ما فى عبادتهم الأوثان إلا أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها فقلدوهم بغير تفكير ولا نظر. لذلك أجابوا سيدنا إبراهيم حين قال لهم (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴿٤﴾)

ولما ضاقوا بأمره ويئسوا من رجوعه عن دعوته وكسر أصنامهم أجمعوا أمرهم وأحكموا مكيدتهم واتفقوا على تحريقه فجمعوا حطبا كثيرا وأوقدوا نارا وألقوه فيها فجعلها الله بردا وسلاما عليه ولم يؤمن به من قومه سوى زوجه سارة ولوط بن هاران بن تارخ ﴿٤﴾

وكانت مواقفه عليه السلام متعددة مع قومه فتارة يحاج والده ومرة يحاج الجمهور وأخرى يحاج النمروذ ملك عصره. وتارة يفعل معهم ما يثير غضبهم فيكسر أصنامهم ليكلموه فى شأنها فيتبينوا خطأ معتقدهم.

ولقد لقى من قومه عليه السلام شر ما يلقاه مصلح من أمته، وكذلك شأن المصلحين فى كل زمان ومكان يدأبون نحو رقيهم ويسهرون لياليهم لمصلحة الناس ومع ذلك لا ينالهم منهم إلا الشر المستطير. ولكن ذلك لا يضير المصلح ما دام عمله خالصا لوجه الكريم.

وهكذا لو نظرنا فى بعثة بقية الرسل وما جاءوا به نجدهم أول عمل قاموا به هو إرشاد أقوامهم إلى توحيد الله تعالى. وقصر العبادة عليه دون سواه. وتطهير النفوس من أدران الشرك وعبادة الأوثان (فمنهم من اهتدى ومنهم من حقت عليه كلمة العذاب ﴿٥﴾)

وإلى هنا يحسن بنا أن نذكر كلمة موجزة عن حالة العالم وعباداتهم قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فنقول :—

(١، ٢، ٣) سورة مريم ٢ الأنبياء (٤) قصص الأنبياء (٥)

(حالة العالم قبل الإسلام)

لم يزل العالم كما عرفناك - قبل يتخبطون في دياجير الجهالة يتيهون بذويهم ويتيهون بآبائهم وأسلافهم يفتخرون كل حزب بما لديهم فرحون. لا دين يردعهم ولا إمام يجمع كلمتهم، ويوحد صفوفهم، فكنت تراهم قبائل متنافرة، وشيعا مختلفة، يتخبطون في بيداء الضلال والأوهام خبط العشواء، ويعبدون الأوثان والأصنام من غير تحرج ولا تفكير.

وكان لكل قبيلة صنما تعبده، وتتقرب إليه بالطاعات والنذور.

وحسبنا أن نجمل لك نبذة مما ذكره الألوسي في بلوغ الأرب حيث يقول:

إعلم أن العرب من عدنان وقحطان كانوا قبل ظهور عمرو بن لحي الخزاعي فيهم على بصيرة من أمرهم يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام، قد تلقوها من ولده نبي الله تعالى اسماعيل عليه السلام، وهي الحنيفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم. فكانوا يعتقدون أن الله تعالى واحد لا شريك له، موصوف بصفات الكمال، منزه عن كل ما لا يليق به، متفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع وغير ذلك من خواص الألوهية، ولا يجب عليه شيء، وإن بطانه من خلقه، عال على عرشه، والناس بآجالهم يموتون ثم مسئولون وإلى ربهم يحشرون، وقد آمنوا بكل ما أنزل على نبيهم من أصول وفروع، ويصومون ويزكون ويحجون ويصلون الأرحام، ويعينون على نوائب الدهر فلما طال الأمد، وقلت معرفتهم بالشرائع، سيما بعد أن ظهر فيهم الخزاعي وشرع لهم ما لم يأذن به الله، فهنالك انقسمت العرب في التعبد إلى أقسام، وافترقوا إلى أصناف، حسبما أدت بهم الوساوس والأوهام.

(١) فكان منهم الموحدون ممن استبصر ببصيرته، فاعترف بوجود الله وتوحيده، ولم يدرك الدعوة، وهؤلاء افترقوا فمنهم من ظل كذلك، ومنهم من اتبع من بقية شريعة ولم تنسخ ملته كعيسى عليه السلام.

(٢) وكان منهم عبدة الأصنام، وهم الذين أقروا بالخالقية، وابتداء الخلق، ونوع منه

الإعادة. وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام، وحجوا البيت ونحروا الهدايا وقربوا القرابين. وتقربوا إلى البيت بالمناسك والمشاعر، وأحلوا وحرموا. وهم الدهماء من العرب وإقرارهم بالخالق هو الذي يسمى توحيد الربوبية، وهو الذي أقر به الكفار جميعهم إلا الثنوية وبعض المجوس، وأما غيرهما فاتفقوا على أن خالق العالم ورازقهم ومدبرهم ونافعهم وضارهم هو الله واحد لا رب غيره. والآيات كثيرة على ذلك منها قوله تعالى

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٢)

وكانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه. وكانوا يقولون ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته، فعبدوها ليتقربوا بها إلى الله زلفى. وكان أول من نصب الأوثان عمرو بن لحي الأزدي. وكان من معبوداتهم سواع(١) ويغوث(٢) ونسر(٣) ومناة(٤) والعزى(٥) وهبل(٦) فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح جعل يطعن بسية قوس في عيون الأصنام التي كانت منصوبة حول الكعبة ويقول جاء الحق وزهق الباطل ثم أمر بها فكفئت ثم أخرجت من المسجد فأحرقت. ولهم أصنام أخرى غير هذه وفيما ذكر الكفاية. وكان منهم عباد الشمس ومن شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما له بيت خاص وسدنة وحجبة يصلون فيه لها ثلاث مرات في اليوم، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به. وهم إذا طلعت وتوسطت وغربت سجدوا لها.

لذلك

سواع - كان برهاط من أرض ينبع يعبده من يليه من مضر بن نزار وكانت سدنته بني لحيان وكانوا يحجون إليه وينحرون عنده * يغوث * صنم اتخذته مذحج وأهل جرش * ونسر * كان بموضع من أرض سبأ يقال لها بلخع تعبده حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس * ومناة * هو أقدم الأصنام وقد سمت به العرب كثيرا وكان حول الكعبة وكانت العرب جميعا تعظمه وتذبح حوله وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له * اللات * صخرة بالطائف اتخذ العرب عليها بيتا وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك وقيل سدنتها من بني معتب وكانت

(٢) سورة الزخرف

لذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في هذه الأوقات للتشبه بالكفار ظاهرا وسدا لذريعة الشرك .

(٤) ومنهم طائفة اتخذت للقمر صنما وزعموا استحقاقه التعظيم واليه تدبير العالم السفلي . وكان هذا الصنم على شكل عجل وبيده جوهرة وكانوا يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياما معلومة من كل شهر . ثم يأتون إليه بالطعام والشراب فرحين مسرورين .

(٥) ومنهم الصابئون الذين يعتقدون في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يصدرون ولا يردون في أمر ولا يسكنون ولا يسافرون ولا يقيمون إلا بنوء كذا .

٦ ومنهم من عبد الملائكة معتقدين أن الإله بلغ من العظمة حدا بحيث لا يصلح الإنسان الذي يصيب تارة في عمله ويخطئ أخرى أن يكون عابدا لهذا الإله الأعظم لما به من نقص، وإنما الذي يصلح لعبادة هذا الإله هو المخلوق الذي لا يخطئ أصلا وهم الملائكة فجعل هذا الفريق الإله معبودا للملائكة دون سواهم وجعل الملائكة معبودين لذلك الإنسان ولهذا صنعوا التماثيل لتكون صورا لها وكانوا يعبدونها .

ومن عباد الملائكة فريق يعتقد أن الإله الأعظم نور في غاية العظمة والإشراق . والملائكة أنوار تختلف في العظم . فاتخذ صنما عظيما وبالغ في تحسينه وتزيينه بشتى الجواهر واليواقيت . وجعله مثالا للإله ثم اتخذ أصناما أخرى تختلف صغرا وكبرا وجعلها مثالا للملائكة . وكان هذا الفريق يعبد جميع هذه الأصنام وقد رد الله عليهم بقوله ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى وهي التي ذكرها الله تعالى في القرآن فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾

العزى * صنم عبدته العرب واتخذت عليه بيت وكانت بواد من نخلة الشامية يقال لها حُرَاض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة وكانت العرب وقريش تسمي بها وكانت أعظم الأصنام عند قريش * هبل * كان من أعظم الأصنام عند قريش وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب وكان أمامه سبعة أقداح يضربونها عنده إذا اختصموا في أمر وأرادوا سفرا وعملا فاخرج عملوا به وانتهوا إليه

اهـ : * ملخصا من أديان العرب في الجاهلية

ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون *)[1] وقال تعالى (* ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا * فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا *)[2]

(٧) ومنهم من عبد الجن. ذكر الشهرستاني في كتابه الملل والنحل. أن العرب يصبوا إلى الملائكة فيعبدهم . ومنهم من يعبد الجن ويعتقد فيهم أنهم بنات الله. وقال أبو المنذر وكانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن وفيهم نزلت (* إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم *)[3] وفي شعب الإيمان عن مجاهد قال . قال كفار قريش . الملائكة بنات الله. فقال لهم أبو بكر الصديق. فمن أمهاتهم. قالوا بنات سراة الجن. ولقد رد الله عليهم بقوله (* ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * إلى أن قال وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون *)[4]

(٨) ومنهم صنف عبدوا النار لما لها من منافع هامة في حياتهم المنزلية. وللإبادة للأشياء الضارة والأنها تحمل إلى الآلهة رائحة القرابين. وتبعد عنهم الأرواح الشريرة.

(٩) ومنهم المجوس القائلون بأن للعالم أصلين هما النور والظلمة. وهما أزليان قديمان. وهم فرق

١٠ ومن العرب من كانوا يعبدون بعض الحيوان. فقد جاء في قصة وفد طيء. أن النبي صلى الله عليه وسلم. نظر إليهم. وقال (إني خير لكم من العزى ولاتها. ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله) وجاء في قصة عمرو بن حبيب الملقب بذي الكبود. أنه أغار على بني بكر فأصاب سقيا. (ولد الناقة) كانوا يعبدونه من دون الله.

١١ ومنهم الدهريون الذين لم يعتقدوا بإله يحيي ويميت. وإنما يقولون هي بطون تدفع وأرض تبلع. ودهر يهلك (* وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر *)[5]

---

(١) سورة سبأ (٢) سورة الفرقان (٣) سورة الأعراف ٤ سورة الصافات (٥) الجاثية

الخ

١١ ومنهم من كان على دين النصارى . وكانت النصرانية فى ربيعة وغسان . وبعض قضاعة .
وأتت هؤلاء النصرانية من جهة الروم فقد كانت منازلهم قريبة منها . وكانت أيضا فى
قبائل بالحيرة . وكانت فى بنى تغلب . ومنازلهم بالعراق .

١٢ ومنهم من كان على دين اليهود كبنى نمير . وبنى كنانة . وبنى الحارث بن كعب . وبنى كندة .

قال الألوسى . وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان لذلك جاء القرآن بل وسائر الكتب الإلهية مصرحة ببطلان هذا الاعتقاد وكفر أهله وأنهم أعداء الله تعالى ورسله وأنهم أولياء الشيطان وأنهم هم أهل النار . وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف . اهـ (ملخصا من بلوغ الأرب مع التصرف بالزيادة والنقص .

جاء الإسلام والعقول راكدة . والنفوس خامدة . والرؤساء مسيطرون على الضعفاء . يصرفونهم أنى شاؤا . ويقودونهم حيثما أرادوا فضعفت العزائم . وانحط التفكير حتى بلغ العرب من سخافة العقل وضعف الأحلام حدا . صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فإذا جاعوا أكلوها .

وفى غير بلاد العرب كان الحكام ورؤساء الأديان يحركون الرعايا والأفراد أنى شاءت لهم نفوسهم حتى ظن الأفراد أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم . وتوفير الملاذ والراحة لهم . وضل السادة والمسودون فى عقائدهم وأهوائهم وطغت على الحق والعدل شهواتهم .

وحسبك جولة فى قول أمير الشعراء فى نهج بردته يصف حال العالم قبيل الإسلام :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم *** إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورا مسخرة *** لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيته *** وقيصر الروم من كبر أصم عم
يعذبان عباد الله فى شبه *** ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم *** كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

فما كان من صاحب الدعوة العظمى إلا أن صاح بذوي الرئاسة والزعامة فيهم أن استجيبوا لداعية العقل، ولبوا صوت الضمير، واخضعوا إلى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والأرض، ومبدعها على غير مثال.

أجل: (لقد صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة من سدنة هياكل الوهم. ثم فإن الليل حالك، والطريق وعرة، والغاية بعيدة، والراحلة كليلة، والأزواد قليلة)[1]

(طريق الإسلام في الدعوة إلى التوحيد)

سلك الدين الإسلامي في بث عقيدة التوحيد في النفوس طريق الحجة والبرهان، وخاطب العقل البشري بما يقع تحت إدراكه، وحثه على التفكير، ودعاه إلى النظر في الكائنات وما اشتملت عليه من الحكم والأسرار. قال تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)[2] وقال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[3] وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حين نزول هذه الآية (ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتدبر في معانيها).

ثم إن العاقل لو نظر بعين الحكمة والصواب في السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم، وعلم أن لكل كوكب فلكا يسير فيه لا يتعداه (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[4] ونظر إلى الأرض وما عليها من جبال شامخات وبحار زاخرات، ونباتات مختلفة، وفواكه متعددة، متغايرة في الطعم والرائحة على حين أنها تتغذى من تربة واحدة، وتسقى بماء واحد، وقد فضل الله بعضها على بعض في الأكل، ونظر في اختلاف الملوين، وكيف ينسلخ النهار من الليل فيصبح الناس في ظلام حالك بعد أن كانوا في ضوء ساطع (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)[5]

أجل، من تدبر في ملكوت السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، فلا بد أن يرشده عقله إلى أن هذه الشمس التي برأها الله لإصلاح العالم، والأرض التي دحاها فأخرج منها ماءها ومرعاها، وسلك فيها سبلا فجاجا لا بد لها من موجد حكيم ليس كمثله شيء

وهو

(١) رسالة الأستاذ الإمام (٢) الأعراف (٣) آل عمران (٤) يس (٥) يس عليه السلام

وهو السميع البصير. ولا يصدق من عنده مسكة من عقل أو ذرة من تفكير أن هذا
الصنع البديع والكون العظيم، وجد بدون موجد قادر حكيم.

وفي كل شيء له آية ❁ تدل على أنه الواحد.

ولقد أقام الله الأدلة لعبدة الأصنام والأوثان لما هم فيه من الجهالة والجمود وخروج
عما يقتضيه العقل، إذ كيف يعبدون ما لا يستحق العبادة، وما هي مربوبة للإله الأعظم
ومخلوقات مسخرة له خاضعة لأمره وتكوينه، ولقد بين أمرها وحالها لمن اتخذها
للعبادة، وكشف لهم عن حقيقة شأنها بقوله جل وعلا: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا
وَهُمْ يُخْلَقُونَ ❁ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ❁ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ
إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ❁ إِنَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ❁
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ❁ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ
الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ❁ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ❁ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ❁)(١) وقوله تعالى مخاطبا نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام
(وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ
وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ
يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ❁)(٢)

وهل هناك أقوى حجة وأصدع بيانا في الدلالة على أنه إله واحد لا شريك له من خالقه.
وأنه هو المنعم عليهم بنعم لا تعد ولا تحصى، وأنه عالم بسرهم وعلانيتهم لا يخفى عليه شيء
من حالهم. وأن عبادة الأصنام ليست من العقل في شيء، وهل ترى في ذلك حجة أدل
وأقوى من قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ❁ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ
لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ❁ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) سورة الأعراف (٢) سورة يونس

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ
إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)(١) وقوله تعالى
* وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ
إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ *
ساير الإسلام العقل فيما يقبله ويوافقه. فالعقل السليم يدرك بأصل فطرته التي فطر الله عليها
ما يترتب على تعدد الآلهة من الفساد. وعدم نظام الكون الذي يقع تحت الحس والمشاهدة. فالله
يأمر العقل بالنظر في ذلك حتى يصل من تلقاء نفسه إلى الجزم بوحدانية الخالق. ونفي الشريك
والتعدد. ألا ترى إلى قوله تعالى منددا على هؤلاء الذين أشركوا بالله ونسبوا إليه
ما ينافي الألوهية من اتخاذ الأولاد (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ
عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ
آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ
إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ *
لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ
إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ
فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)(٢) *
هذا وقد ضرب الله الأمثال الكثيرة في كتابه العزيز ليرشدهم إلى أن الوحدانية هي الكمال الذي
يليق بالخالق. وأن الشركة نقص لا يليق به تعالى. وليبين لهم تباين الحال بينه عز وجل
وبين ما أشركوا به على ما بينهما من تباعد بحيث ينادي بفساد ما اعتقدوه نداء جليا.
(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا

(١) سورة النحل (٢) الأنبياء

يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]

فإذا كان المرء لا يستطيع أن يسوي بين العبد المملوك، ورجل قد وهبه الله رزقاً حسناً فهو حر في البذل والبذخ، يتصرف في ماله كيف شاء، سراً وعلانية، يعطي من يشاء ويمنع. وإذا كان أيضاً ليس في استطاعة مخلوق أن يسوي بين رجل منطيق، قد وهبه الله ذلاقة لسان وقوة بيان، يأمر بالعدل ويسلك الطريق المستقيم، وآخر أبكم لا يقدر على شيء وهو كل وثقل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير.

فمن عجب أن يسوى بين خالق كل شيء، وشيء مما خلق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2]

هكذا سلك القرآن في إثبات عقيدة التوحيد مسلك العقل الحكيم، والنظر في ملكوت السموات والأرض، وقد بصر الناس في أنفسهم حتى يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿التوحيد في الكتب السابقة﴾

جاء في الكتب السابقة النهي عن الإشراك، واتخاذ الأوثان آلهة من دون الله، ففي التوراة في سفر التثنية (الإصحاح السادس) ورد (إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك) وفيه (الرب إلهك تتقي، وإياه تعبد وباسمه تحلف لا تسير وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم. لأن الرب إلهكم إله غيور في وسطكم) وفي الإصحاح الخامس النهي عن اتخاذ تماثيل للآلهة (لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك غيور. أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبي، وحافظي وصاياي.

وجاء في التوراة، التحذير من الوثنية على اختلاف مظاهرها وأسبابها. فنهى عن

[1] النحل [2] سورة الحج

التصوير والتجسيم وما يشبه ذلك، حتى فى غير المعابد. جاء فى الإصحاح السادس (لا تنصب لنفسك سارية من شجرة ما بجانب مذبح الرب إلهك الذى تصنعه لك ولا تقم لك نصباء الشئ الذى يبغضه الرب إلهك) وتكرر فيها النهى عن اتخاذ الأوثان من أى نوع أو شكل (ولا تلتفتوا إلى الأوثان وآلهة مسبوكة. لا تصنعوا لأنفسكم) لاويين - ١٩ - وكما نهوا عن عبادة الأوثان نهوا عن عبادة الكواكب، وغيرها مما خلق الله تعالى (لئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التى قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التى تحت كل السماء فتغتر وتسجد لها وتعبدها) وفى التوراة جعل القتل جزاء الشرك (من ذبح لآلهة غير الرب يهلك) سفر الخروج - ٢٢ - والرجل أو المرأة الذى يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس وللقمر أو لكل من جند السماء يخرج ويرجم بالحجارة حتى يموت) التثنية - ١٧ - إلى غير ذلك من الآيات الدالة على توحيد الله تعالى، والنهى عن الإشراك به، وعبادة الأوثان والكواكب.

والإنجيل جاء بعقيدة التوحيد وإن كان بعد المسيح عليه السلام، أخذت هذه العقيدة تلبس لبوسا يبعدها عن حقيقة أمرها، ومع هذا فإن بعض فرق النصارى تمسك بهذه العقيدة، فأصحاب بولس الشمشاطى وكان البطريرك بأنطاكية كانوا يأخذون بالتوحيد المجرد، ويقولون إن عيسى عبدالله ورسوله ككل الأنبياء، ومنهم فرقة أريوس وكان قسيسا بالاسكندرية، اعتقد التوحيد وكون عيسى عبدالله ومخلوقه.

(التوحيد دين الفطرة)

الإنسان بما ركب فيه من قوة العقل ومنحة التفكير إذا ما تجاوز درجات التمييز الأولى، واستعد للنظر الصحيح فيما يحيط به، ويجرى أمامه من عوالم ثابتة وشئون متجددة، وابتعد عن تقليد الآباء والأسلاف، وأطلق لنفسه حرية التفكير فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما يهديه عقله ويرشده تفكيره، بأن موجد العالم وهو الله تعالى، واجب الوجود، ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل وحدة الذات.

فالدليل على وحدانية الله مستقر فى فطرة الإنسان التى فطر الله العقلية الإنسانية

عليها. فهذا العربي القح الذي لم يجلس إلى معلم ليتلقى عنه الأدلة المنطقية ولم يقرأ كتابا ليستضيء بنوره. ويهتدي به إلى الإقرار بالوحدانية تراه تفكيره وهداه عقله إلى الاعتراف بوجود عليم خبير، حينما نظر فيما بين يديه من عوالم مختلفة فرأى شمسا وقمرا يجريان بحسبان، وكواكب وأفلاكا لا يختل لها ميزان، وجبالا راسيات شامخات، وبحارا زاخرة، وأنهارا ماؤها عذب فرات. فبهره هذا الصنع الجميل، والخلق العظيم فقال،

البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير. أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدل على العليم الخبير) وهناك الفلاسفة أوصلهم تفكيرهم وبحثهم إلى وجود إله واحد لا شريك له، فهذا أفلاطون مثلا يرى (أن وجود الإله أمر لا سبيل إلى الشك فيه، وأنه واحد لا شريك له لأنه لا يمكن أن يكون غير ذلك وإلا لحد الشريك سلطته التي لا يثبت له الكمال إلا إذا كانت لا حد لها)

ويقول أفلوطين زعيم الأفلوطونية الحديثة في كلامه عن الألوهية (وهو الوحدة المطلقة هو الإله الذي يستحيل وصفه كما يستحيل حده لأنه يتجاوز بعظمته كل الإدراكات البشرية تجاوزا لا يتناهى، هو الواحد الأوحد، وهو مع كونه كل شيء ليس واحدا من هذه الأشياء لأنه لا يمكن أن يكون أحد الكائنات التي هو جوهرها جميعها. ويقول سبنسر الإنجليزي) ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التي ينتهي إليها عالم الطبيعة)

وقال العلامة (نيوتن) في إثبات الخالق " هذه الكائنات العالية في منتهى كمالها على أبدع الصور وأكملها، ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حي حكيم له سلطان في كل مكان يرى حقيقة كل الشيء في ذاته ويدركه أكمل إدراك.

من هذا يتبين لنا جليا أن التوحيد مستقر في النفوس ثابت في الأفئدة وأن الشرك عصيان وتمرد وخروج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها واستسلام معيب من الجماعات البشرية لأفراد اكتسبوا صفة القوامة الدينية عليها، وما لهم بذلك من علم، ولكنهم أرادوا

أن يكون لهم السلطان والنفوذ، فأخذوا يملون على الجماعات من التقاليد والعقائد ما يزيدهم إيغالا في الوحشية، ومضيا في ارتباك العقلية الإنسانية ليصرفوها عن التفكير فيما حولها، وينفردوا هم بالسيطرة على نفوسها وعواطفها، فسولت لهم نفوسهم تعديد الآلهة ليؤثروا على عقولهم، حتى يسهل قيادهم في أيديهم وتكون لهم الصولة والسلطان.

وقد أثبت الأستاذ الألماني الكبير (ماكس مولر) عمدة الباحثين في الأديان البشرية القديمة، وتطوراتها، وأن الناس كانوا في أول عهودهم موحدين بالذات الإلهية، لا معددين للآلهة، عاشوا على ذلك التوحيد دهرا طويلا، ثم طرأت عليهم الوثنية بفعل زعمائهم الدينيين، فقد سولوا لهم تعديد الآلهة للتأثير في عقولهم ليسهل قيادهم في أيديهم ويصرفوهم فيما يشتهون، ويرتفعوا في نظرهم إلى مرتبة خزنة الأسرار الإلهية، ومهبط العلوم العلوية)، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الإنسان لو خلي ونفسه وما خلق عليه من سلامة الفطرة، وصفاء القريحة لما اختار سوى عقيدة التوحيد، ولا يعدل عنها الإنسان إلا بآفة من الآفات البشرية، كالتقليد للأبوين والتأثير للبيئة التي يعيش فيها قال عليه الصلاة والسلام (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُنتَج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)"

ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه وهو راوي الحديث (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) والقسطلاني شارح البخاري ذكر في معنى الفطرة أنها الجبلة السليمة، والطبع المتهيء لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومه لكن تطرأ على بعضهم الأديان الفاسدة.

ولما كان الشرك بالله تعالى مخالفا للفطرة التي فطر الله الناس عليها لأنه العلة الرئيسية لجميع ضروب الآفات والرذائل، كان من حكمة الله تعالى أن يشدد في العقوبة المترتبة عليه لتتفطن النفوس إلى خطورته، وتتنبه العقول إلى شناعته فجعل جزاء الشرك

الخلود في النار (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ

(الوصية الثانية الإحسان إلى الوالدين)

قال تعالى (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

المفردات : الوالدين تثنية والد وهو الأب ، ويطلق على الأب والأم للتغليب

الإحسان : ضد الإساءة ، من فعل ما ينبغي مع الناس وكف عن الإضرار بهم كان محسنا . وقد يقصد من الإحسان إتيان الأعمال على الوجه اللائق بها ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيره (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)

الإعراب :

بالوالدين : متعلق بفعل محذوف دل عليه إحسانا . قال الزمخشري : ولا يصح تعلقه بالمصدر لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه خلافا للواحدي حيث يجوز تعلقه به .

وفصل بعضهم في ذلك فقال : إن كان المصدر منحلا من أن والفعل فالوجه ما ذهب إليه الزمخشري . وإن جعل نائبا من فعله المحذوف فالوجه ما قاله الواحدي . وذهب كثير من النحاة إلى جواز تقديم معمول المصدر مطلقا إذا كان ظرفا أو جارا أو مجرورا إذ يتوسعون في الظروف والجار بما لم يتوسع في غيرها .

(صلة الجملة بما قبلها)

لما ذكر الله سبحانه وتعالى ، واجب الإنسان نحو خالقه ، بأن نزهه عن الشرك وعبادة غيره ، وهذا يستدعي قصر العبادة عليه دون سواه ، ثنى بوجوب الإحسان إلى الوالدين وذلك لأن نعمة الله أجل النعم ، وأعظمها ، فلا بد من تقديم شكره ، والإقرار بوحدانيته ثم يلي نعمة الله على العبد نعمة الوالدين عليه ، لأنهما أعظم النعم على العبد بعد نعمة الله حيث إن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله عز وجل .

والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر، لذلك لما ذكر المؤثر الحقيقي ناسب أن يردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر، وأيضا فإن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضا البتة، وإنما المقصود محض الإنعام، والوالدان كذلك لا يطلبان على إنعامهما على تربية الولد عوضا ماليا ولا ثوابا أخرويا، فإن الذين ينكرون الميعاد يحسنون إلى أولادهم، فأشبه إنعام الوالدين من هذا الوجه إنعام الله تعالى المعنى *

وصى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بالإحسان إلى الوالدين، وأوجب برهما في كثير من آي القرآن الحكيم، لمزيد العناية بهما، ولما لهما على الولد من فضائل لا تحصى، وخيرات لا تعد، فقد بذلا في تربيته والقيام بشأنه أيام أن كان ضعيفا عاجزا لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرا مجهودا شاقا وعناية بالغة، لذلك أوجب الله سبحانه وتعالى على المرء أن يحسن إلى والديه إحسانا تاما كاملا لا يدخر فيه وسعا، ولا يألو فيه جهدا، والأمر بوجوب الإحسان، يستلزم حرمة الإساءة كيفما كانت لأن الإساءة من عقوق الوالدين، وهو من أكبر المحرمات عند الله تعالى،

ومن النظم الكريم اختيار الأمر بإيجاب الإحسان على النهي، وعدم مقابلة، وهو الإساءة إيذانا بأن الإساءة ليس من شأنها أن تقع لأنها خلاف الفطرة السليمة والآداب المرعية عند جميع الأمم، وفي سائر الشرائع، فمن قصر في حق والديه وبرهما يكون فاسد الفطرة، مضيعا للحقوق جميعها لا يرجى منه خير لأحد ضرورة أنه لم يفعل الخير مع من هما أقرب الناس إليه، وألصقهما به، وهما الوساطة في إنشائه، ومادة تكوينه، وورد لفظ الإحسان بالتنكير لزيادة التعظيم فكأنه قال أحسنوا بالوالدين إحسانا تاما كاملا عظيما لا تشوبه إساءة ما، ألا ترى في قوله تعالى (وَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ)

وحيث انتهينا من الكلام على المعنى فمن الحق علينا أن نبين ما للوالدين من حقوق فنقول

(حقوق الوالدين)

والدا الإنسان لهما عليه حقوق لابد من آدائها، وواجبات يحتم عليه قضاؤها، لأن برهما والإحسان إليهما فريضة مقدسة في كل الشرائع السماوية. وفضلا عن أن الفطر السليمة تمليه وترغب فيه. فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، ولا إحسان أعظم من الإحسان إلى الوالدين اللذين ربياه صغيرا، وحفظاه مما يحفظان منه أنفسهما بل ربما قدماه عليها في أحوال كثيرة. فمن حق الوالدين على الولد أن يمتثل أوامرهما عامة مالم يكن فيه خروج على الدين الحنيف، فليس عليه طاعتهما، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)(١)

ألا ترى أن أباه قد بذل جهدا واسعا في تربيته صغيرا، وأتعب نفسه في تحصيل ما ينفعه من غذاء وشراب، وشعار ودثار، وجميع مطالبه، والقيام بأوده إلى أن عرف حقوق نفسه، وأمكنه أن يكتسب، ولولاه لما كان له وجود ولمات جوعا، وأما أمه فقد عانت فيه المشقات العظام والآلام الجسام (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) ونقته من الأدران، وسهرت في سبيل مصلحته الليالي الطوال.

لذلك قرن الله تعالى توحيده وعبادته بالإحسان إليهما، وجعل عقوقهما مقترنا بالشرك وعقب النهي عن الإشراك الأمر بالإحسان إليهما (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

وقد بالغ في التوصية بهما مبالغة عظيمة، وشدد في النهي عن إغضابهما، ولو بأدنى كلمة تنفلت من المتضجر، ولو مع وجود موجبات الضجر، في أحوال قد تستيقظ شهوة الغضب، فعلى العاقل أن يتأدب بآداب الله، فلا يقول لهما إلا قولا جميلا، في حياء واحتشام، وبخاصة إذا كانا كبيرين، فتلك حالة تنادي بالمجاملة، وحسن التلطف والتوقير والتعظيم مع التواضع والتذلل، قال عز من قائل (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا

(١) العنكبوت

كريمًا. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا) (١)
ولذلك تأكد بر الوالدين فهو من حق الأم آكد وفي شأنها أعظم لأنها ذاقت في حمله الصعاب والعسل وطعمت في ولادته وتربيته الأمرين، لهذا قال عليه الصلاة والسلام (بر الوالدة على الوالد ضعفان) وقال (دعوة الوالدة أسرع إجابة) قيل يا رسول الله ولم ذاك قال هي أرحم من الأب. ودعوة الرحم لا تسقط) وناهيك بما ورد في الحديث.

(أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي. قال أمك قال ثم من. قال أمك قال ثم من. قال أمك قال ثم من قال أبوك) (٢)
فقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم بر الأم تأكيدا شديدا ثم جعل الأب في المرتبة الثانية.

ل قال ابن بطال فيما في هذا الحديث (مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر وكان ذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع. فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ثم تشارك الأب في التربية) وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين) (٣) فسوى بينهما في الوصاية وخص الأم بالأمور الثلاثة وقال القرطبي المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر. وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاحمة.

لذلك وعد الله المثوبة للبارين بوالديهم من حسن إسلامهم. فيجازيهم على الإحسان إحسانا، ويتجاوز من سيئاتهم ألا ترى إلى قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا. حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين • أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) (٤)

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على برهما ولما عقهما فقال (رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه قيل من

(١) سورة الإسراء (٢) الحديث رواه البخاري ومسلم (٣) لقمان (٤) سورة الأحقاف

يا رسول

يا رسول الله. قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة) [1] فهذا الحديث يدل على ما للبر الوالدين من المنزلة العظيمة عند الله، وأن برهما سبب في دخول الجنة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال (أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه. قال هل بقي من والديك أحد. قال أمي. قال قابل الله في برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد) على أن الله قد طلب معاملة الوالدين بالحسنى ولو كانا كافرين حيث يقول (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [2] فالله تعالى أمر الإنسان بالإحسان إلى والديه الكفار وبرهما في الأمور الدنيوية. روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما. قالت. قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قدمت علي أمي وهي راغبة أفأصل أمي قال نعم صلي أمك. فهذا يدل دلالة واضحة على ما للبر الوالدين من المنزلة الرفيعة. ولهذا قد مدح الله به النبيين قال تعالى يصف سيدنا يحيى عليه السلام (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) [2] وقال جل شأنه حكاية عن سيدنا عيسى عليه السلام (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) [4]

فبر الوالدين من أجل الصفات الخلقية. وهو يستوجب رضاء الله في الدنيا والآخرة. وسبب من أسباب السعادة، والخلاص من الشرور والمهالك.

ورد عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار. فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم. قال رجل منهم اللهم كان لي أبوان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا. فنأى بي طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما، وأن أغبق قبلهما أهلا ومالا. فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي فاستيقظا

(١) الحديث رواه مسلم (٢) لقمان ١٥ (٣) ١٤ (٤) ٣٠-٣٢ سورة مريم

شرا فبوقتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك. ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة. فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه)[1] وفي آخره أن الصخرة ارتفعت عنهم بفضل صالح أعمالهم. وخرجوا من الغار سالمين.

وحيث كان بر الوالدين واجبا محتما، فإن العقوق من شر الجرائم الإنسانية وأشدها خطرا على المجتمع، ومن أكبر الكبائر عند الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة. إلا عقوق الوالدين، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات).

وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين في التوراة حتى أنه ليوجد فيها أن من يسب والديه يقتل. جاء في سفر الخروج (من سب أباه أو أمه يقتل قتلا).

(بر الوالدين ليس خاصا بحال حياتهما)

ولا يختص بر الوالدين بحال الحياة فقط. بل هو بعد مماتهما كما هو في حال حياتهما.

عن أبي أسيد بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة. فقال يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما (قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما. وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما)[2] وزاد في آخره قال الرجل ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه قال فاعمل به) وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه) وورد في مسلم عن عبد الله ابن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله بن عمر وحمله على حمار كان يركبه. وأعطاه عمامة كانت على رأسه. قال ابن دينار فقلنا له أصلحك الله إنهم الأعراب. وهم يرضون باليسير. فقال عبد الله بن عمر أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه) وعن أبي بردة قال قدمت المدينة

(١) الحديث متفق عليه (٢) الحديث رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه

فأتاني عبد الله بن عمر فقال أتدري لم أتيتك قال قلت لا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه بعده) وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك ود فأحببت أن أصل ذلك[1].

هذا واجب الأبناء نحو آبائهم، ولكن المسلمين قد أهملوا واجبهم، وتركوا وصايا الله فيهم وإرشادات النبي صلى الله عليه وسلم لهم فكلمة التأفف بل السب والشتم والزجر جارية على كل لسان، والقول الكريم أصبح لا وجود له إلا في قليل من الناس. أصبح الولد يخاطب أباه بغلظة وشدة كما يخاطب خادمه ومملوكه، ويتغلظ له في القول ويقابله بوجه مكفهر فلا تلطف ولا لين، ولا شفقة ولا رحمة، عم الفساد في هذه الأيام التي غاض خيرها وفاض شرها، وتدهورت فيها الفضيلة، وضاعت معالم الشريعة الغراء وطرحها الناس وراءهم ظهريا، وتركوها نسيا منسيا.

أصبح الولد في هذا العهد القاتم لا يرعوي أن يقتل والده لشهوة دنيوية زائلة أو حطام فاني. أصبحنا اليوم لا يقع نظرنا إلا على والد ينظر في وجه السماء نظرة طويلة يرسل فيها إلى خالقه كل ما يختلج في نفسه القريحة من ألم ممض وحزن عميق من جراء ما يلقاه من غرس يديه الكريمتين، أو أم تنوح وتبكي مما تلقاه من ابن ما يذيب الأفئدة، ويفتت الأكباد، قد قرح الدمع مآقي عينيها، وأذهب الحزن نضارتها، وأنضى البكاء والألم جسمها. تعال لزمان ترى الولد فيه قرير العين بزوجه وأولاده يتمتع بشهي الطعام ولذيذه وأبواه يبيتان على الطوى، ويعيشان في البؤس والضنك، ولا يناله منه لماج ولا رجاج بينما يكون الولد في رغد من العيش وسعة من الرزق، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وإني لأختم هذا القول بحديث وقع لابن مع أبيه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول إن أبي يأخذ مالي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم فاذهب فأتني بأبيك فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن الله يقرئك السلام ويقول، إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه فلما جاء الشيخ قال له النبي صلى الله عليه وسلم ما بال ابنك يشكوك.

---

(1) الحديث رواه ابن حبان في صحيحه

تريد أن تأخذ ماله. قال سله يا رسول الله هل أنفقته إلا على عماته وخالاته أو على نفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم إيه. دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته من نفسك ما سمعته أذناك فقال الشيخ والله يا رسول الله ما يزال الله تعالى يزيدنا بك يقينا. لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي فقال قل وأنا أسمع فقال قلت(١)

غذوتك مولودا وعلتك يافعا ۞ تعل بما أجني عليك وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ۞ لسقمك إلا ساهرا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي ۞ طرقت به دوني فعيني تهمل

تخاف الردى نفسي عليك وإنها ۞ لتعلم أن الموت حتم مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التي ۞ إليها مدى ما كنت فيها تؤمل

جعلت جزائي غلظة وفظاظة ۞ كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ۞ فعلت كما الجار المجاور يفعل

تراه معدا للخلاف كأنه ۞ برد على أهل الصواب موكل

قال فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال أنت ومالك لأبيك. وفي نحو هذه القصة بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى.

اللهم اجعلنا من البارين لوالدينا الجالبين لرضاهم. البعيدين عن سخطهم.

وإذ قد انتهينا من حقوق الآباء نحو الأبناء فلا يفوتنا في هذا المقام أن ننبه

(حقوق الأبناء نحو الآباء)

نعم الله على العباد كثيرة. ومن أجلها نعمة الأولاد الذين جعلهم الله سلوة الحياة وزينتها وزخرفها (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وقد غرس الله محبة الأبناء في قلوب الآباء ليكونوا لهم عونا في حياتهم الأولى وليعملوا على تنشئتهم وتأديبهم وتعويدهم الأعمال النافعة. يسهرون على راحتهم وحراستهم مما يضرهم من عوادي الزمن أو من أخلاق ذميمة ونفوس شريرة.

فمن حق الأبناء على آبائهم مراقبة أعمالهم في الصغر فإن كانت خيرا حملوا على

(١) رواه البيهقي في الدلائل والطبراني في الأوسط والصغير والقرطبي بالإسناد المتصل

تنفيذها وتحقيقها، وإن كانت قبيحة اجتنبوها من نفوسهم، ويبينوا لهم مضارها ومساوئها بالموعظة والذكر الحسن، حتى يشب الأولاد على أعمال الخير من بدء حياتهم، وتنطبع في أنفسهم الأخلاق الحسنة، ويتعلقون بأهداب الفضيلة، ويستمسكون بحبل الهدى والرشاد فيحيون حياة طيبة يكونون بها سعداء في أنفسهم ونافعين لأمتهم. أما إذا أهمل أمر الولد وشأنه ولم يعط نصيبه من الإرشاد والتهذيب نشأ سيئ الأخلاق محبا للشر كارها للخير، وفي ذلك البلاء المبين، والشقاء العظيم على نفسه وعلى أمته، وعلى والدين الكلفة العظيم من تبعات شروره وجرائمه حيث لم يقوما بما هو واجب عليهما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة)[1]

قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله ومروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فذلك وقاية لكم ولهم من النار.

وقال سيدنا علي رضي الله عنه (علموهم أدبوهم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن)[2] فتربية الأولاد فرض لازم لا يصح إهماله. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ألزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم)[3]

فعلى الآباء أن يراقبوا أبناءهم، ويرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم دنيا وأخرى بالرفق واللين، بعيدين عن العنف والشدة، ففي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه) وألا يألوا جهدا في بث روح الفضيلة، ونشر مبادئ الدين الحنيف في نفوسهم وعلى الأمهات أن يغذين أطفالهن بلبان الحكمة، وأن يهذبن أخلاقهم في عهد الصغر فإن من شب على شيء شاب عليه، ومتى قام الآباء والأمهات بواجبهم أصبحت الأسرة في أعظم مسرة وباتت قريرة العين في عيشة راضية هانئة، وقلوب مستريحة هادئة ترفرف عليها أعلام السعادة، وتحوطها الغبطة والمسرة من كل جانب.

على الآباء والأمهات أن يسلكوا في تأديب أبنائهم مسلك الحكماء والعلماء وقادة الرأي

(١) سورة التحريم (٢) الحديث رواه الترمذي (٣) رواه ابن ماجه

وكيف القرآن والسنة دستورهم الذي يستمدون منه التعاليم المثقفة للعقول وليسمعوهم وصية الحكيم لقمان من القرآن (إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ. يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)[1]

وليسمعوا بناتهم هذه الوصية الرائعة وصية أسماء بنت خارجة الفزارية لابنتها عند زواجها حيث تقول لها: إنك قد خرجت من العش الذي فيه درجت وصرت إلى فراش لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه فكوني له أرضا يكن لك سماء، وكوني له مهادا يكن لك عمادا، وكوني له أمة يكن لك عبدا، ولا تلحفي فيقلاك، ولا تباعدي عنه فينساك، واحفظي أنفه وسمعه وعينيه، فلا يشم منك إلا طيبا، ولا يسمع منك إلا حسنا، ولا ينظر إلا جميلا.

لو قام كل من الآباء والأمهات بواجبه، وعنوا جميعا بتربية الأولاد في صغرهم على مبادئ الدين الحنيف، وتعويدهم مكارم الأخلاق، وحثهم على طلب المثل العليا، لما رأينا هذه المنكرات المنتشرة والحرمات المنتهكة، والزيغ في العقائد والتهاون في تنفيذ أوامر الدين.

أجل، لو جلس الآباء إلى أبنائهم يرشدونهم إلى عمل الخير ويذكرونهم بمجد أسلافهم السابقين الذين غاروا حصون الممالك البعيدة، ومعاقل العواصم ففتحوا بلدهم وثلوا عروشهم، وبنوا فيها معالم دينهم، وصيروها حنيفية بيضاء بعد أن كانت جاهلية سوداء، يذكرونهم بأن جميع مكارم الأخلاق إنما هي منتزعة منهم مأخوذة عنهم، وأن دينهم دين الفضيلة يدعو إلى الشفقة والرحمة، وحفظ الجوار

---

[1] لقمان

ورعى النساء والجهاد في رفعة الوطن.

ليعود الآباء أبناءهم الشجاعة الأدبية والصراحة في الحق والصدق في القول والإخلاص في العمل، وحرية الرأي في حدودها، ولا يضيقوا عليهم في المعاملة ولا يغلظوا عليهم في أمورهم أو يدبروا لهم من آبائهم مثل الزواج متى آنسوا منهم رشداً ورأياً سديداً لو قام الآباء بواجبهم نحو أبنائهم لعاشوا عيشة طيبة راضية ولأنجبوا رجالاً يمثلون أبا بكر في إيمانه وصدق عزيمته، وعمر في عدله وزهده، وعثمان في ورعه وتقواه، وعلياً في شجاعته وقوته، ولأنجبوا أمهات صالحات يعملن لرفعة الدين والوطن فالأم هي المدرسة الأولى التي يتربى فيها الطفل وهي التي تستطيع أن تكون من هذا الطفل رجلاً شجاعاً يُشار إليه بالبنان أو جباناً يضطرب قلبه فزعاً حتى من وقع الأقدام.

• الأم مدرسة إذا أعددتها • أعددت شعباً طيب الأعراق •

انظر إلى أمهات سلفنا الأماجد كيف كن يربين أبناءهن على الأخلاق الفاضلة والشجاعة النادرة. فها هي ذي تماضر الخنساء تدفع بنيها الأربعة إلى القتال في سبيل الله، وترغبهم فيه بعبارات تخلع من الجبان رجلاً شجاعاً بل تحرك الجماد. فقد قيل أنها شهدت حرب القادسية، ومعها أربعة بنين لها فقالت لهم من أول الليل يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين.

واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية يقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١) فإن أصبحتم إن شاء الله سالمين فامضوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت ناراً على أوراقها فيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة.

(١) سورة آل عمران

فلما كان القتال في الغد كان يهم كل واحد منهم ويقول شعراً يذكر فيه وصية العجوز ويقاتل حتى يقتل فلما بلغها خبر قتلهم قالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"(١) فأين هن من نسائنا اللواتي يولولن ويبكين حتى بانتقال أبنائهن من جهة إلى أخرى في طلب العيش والرزق.

(الوصية الثالثة النهي عن قتل الأولاد)

قال تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)

وجه الربط.

لما وصى الله سبحانه وتعالى في الجملة السابقة بحق الوالدين والإحسان إليهما أردف ذلك ببيان الواجب على الوالدين نحو أولادهم فنهاهم عن عادة ذميمة كانت منتشرة في معظم القبائل، وهي قتل الأولاد خوف الفقر والبنات خشية الفقر أو العار.

المفردات: أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت لكن إذا اعتبر فعل المتولي سمي قتلاً، وإذا اعتبر فوت الحياة قيل موت (أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ) والإملاق: الفقر.

الإعراب.

هذه الجملة معطوفة على التي قبلها ومن تعليلية أي لأجل الفقر وقوله (نحن نرزقكم وإياهم) جملة مستأنفة أتي بها لتعليل النهي عن قتل الأولاد والإبطال الموجب لارتكاب هذا الأمر الشنيع، ولبيان أن الله رازقهم جميعاً.

المعنى.

كان بعض أهل الجاهلية من يقتلون أولادهم الذكور خوف الفقر، والبنات خوف الفقر أو العار فنهاهم الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن ارتكاب هذا الجرم الشنيع، وأبان لهم أن الفقر والغنى بيد الله يعطي من يشاء ويمنع، يرزق الأولاد والآباء من فيض فضله، وواسع رزقه.

(١) الحديث رواه ابن عبد البر عن الزبير بن بكار. (٢) الأنعام

وكونه

وكونه تعالى جعل القتل في هذه السورة بسبب الإملاق، إشارة إلى حصوله والوقوع فيه بالفعل، ثم قال (نحن نرزقكم) مخاطبا الآباء، ومبشرا لهم بزوال الفقر عنهم، وإحالة الرزق على الرازق، ثم عطف عليهم الأولاد فقال تعالى (وإياهم) أي لأن رزق الآباء والأولاد قد تكفل به الله تعالى فضلا منه ورحمة (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) وأما قوله تعالى في سورة الإسراء (وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) فالتركيب يفيد أنهم موسرون وأن قتلهم أولادهم إنما هو مخافة نزول الفقر بهم، لذلك بدأ برزق الأولاد، ثم عطف عليهم الآباء (نحن نرزقهم وإياكم) فالمخاطب في الحالين مختلف أحدهما كان يقتل الأولاد للفقر الواقع به، وثانيهما كان يقتلهم وهو غني موسر، ولكنه يخشى نزول الفقر وقتله، فلهذا غاير في التركيبين مراعاة للحالتين.

(الوأد عند العرب)

كانت العرب في أيام الجاهلية في نزاع دائم، وشقاق مستمر، يشنون الغارات لأتفه الأسباب وأدناها، وكانت القبيلة إذا هاجمت قبيلة أخرى جعلت في مؤخرة جيشها نساءها، وذوات أرحامها، تثبيتا لأنفس المقاتلين وشدا لعزائمهم وربما أحيط بهم وغلبوا على أمرهم، فيكون من الظافر أن يتخذ نساء المغلوب سبايا فيسوقهن إلى بيته سوق الأنعام، ويتحكم فيهن كما يتحكم في ماله لا لحاجة له بهن، ولكن ليقطع بسبيهن آخر عرق ينبض في قلب مقاتله ليعيش ذليل النفس كاسف البال مقنع الوجه أمد الحياة، ومن العرب من كان فقيرا معدما، أو يخشى أن يصيبه الفقر ويمضه بنابه، فيصبح أولاده في حاجة إلى طلب العيش، وقد يؤدي ذلك إلى أن يطلبوه من طريق غير شريف كأن يستجدوا الناس ويطلبوا منهم فضل قوتهم، أو تتزوج البنت لمن هو دونها حسبا ونسبا، ولكنه من الثراء بمكان، أو ترتكب الفاحشة، وفي ذلك من الذلة والمهانة ما لا يرضاه العربي لنفسه وعقبه. لذلك لجأ بعض قبائل العرب إلى قتل الأولاد الذكور، خوف الفقر، والبنات خوف الفقر والعار.

وأول قبيلة وأدت من العرب ربيعة. وذلك أنهم أغير عليهم فنهبت بنت أمير لهم، فأرادوا أن يستردوها بعد الصلح. فخيرت بين أن تختار من هو عنده أو تختار أباها فاختارت من هو عنده وآثرته على أبيها. فغضب أبوها وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد هذا مثل ما وقع. وقد شاعت هذه العادة القبيحة عند غيرهم من العرب. فكان الرجل يمدها وليدته وقد بدأت تستقبل الوجود وتتنسم روح الحياة فيلقيها في حفرة من الأرض ثم يهيل على جسمها الغض الناعم التراب. ثم يدعها في غمرة الموت بين طيات الأرض بدون شفقة ولا رحمة. أو يستبقيها على كره لها ومضض منها. وترقب لموتها. وقد عاب الله ذلك عليهم ونقمه منهم. وبين خطل رأيهم وسوء صنيعهم في مواطن كثيرة من كتابه الكريم. فقال جل ذكره في سورة النحل

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

ولقد بلغت القسوة بأحدهم أن ولدت امرأته في غيبته بنتا فخبأتها عند أحد أقاربها لئلا تقتلها يد القسوة. حتى إذا ترعرعت وأصبحت مثلا قرة عين والدها وظنت أنها قد أمنت قسوة أبيها وعدوانه. وأن عاطفة الأبوة تحول بينها وبين وأدها أحضرتها من مكانها. وقدمتها لأبيها. فسألها عنها فأخبرته خبرها. فسكت منتهزا فرصة غفلة أمها. حتى إذا سنحت أخذ الفتاة فحفر لها حفرة ودفنها فيها حية. وهي تمسح له التراب عن لحيته وتقول ما الذي تفعل بي يا أبت. ذلك صنعهم بالبنات، وهن برد الأكباد، وثمرة الفؤاد[1].

(مذاهب العرب في الوأد وطرقه)

من العرب من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن. ومنهم من كان يئد منهن من كانت زرقاء كسحاء. أو تشاءموا من هذه الصفات. ومنهم من كان يقتل الأولاد جميعا خشية الإنفاق. وفيهم نزلت هذه الآية.

(١) أديان العرب في الجاهلية

ومنهم

ومنهم من كان ينذر - إذا بلغ بنوه عشرا نحر واحدا منهم كما فعله عبد المطلب في قصته المشهورة .

وكان لهم في ذلك طرق . قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :
منهم من كان إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها ولا يقتلها أمسكها مهانة إلى أن تقدر على الرعي ثم ألبسها جبة من صوف أو شعر وأرسلها في البادية ترعى له إبله . وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها . وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض .
وعند بعضهم كانت إذا جاءها المخاض حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتا رمت بها فيها . وإن ولدت إبنا حبسته . اهـ .

وقد نهض عدد من سادات العرب من حال دون الوأد بما بذل من مال جم وسعي مجيد . ومن بين هؤلاء صعصعة بن ناجية التميمي الذي كان يتلمس من جاءها المخاض ليفد الليل . ويستوهب الرجل حياة مولوده إن كان بنتا على أن يعطيه في مقابل ذلك بعيرا وناقتين عشراوتين . فما أن جاء الإسلام حتى كان قد افتدى اربعمائة وليدة . ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل القرشي . كان يضرب بين مضارب القوم فإذا بصر برجل يهم بوأد ابنته قال له لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها . فيأخذها ويلي أمرها حتى تشب عن الطوق فيقول لأبيها إن شئت دفعتها إليك . وإن شئت كفيتك مؤونتها[1]

(الإسلام والوأد)

جاء الإسلام والعرب في حالة سيئة من الخشونة والجهالة والهمجية . قد قست منهم القلوب . وغلظت الأكباد . لا يرعوي الرجل منهم عن أن يذهب بابنته وفلذة كبده إلى الفلاة . يحفر لها الحفرة ليدفنها فيها وهي تنظر إليه وتحنو بفؤادها عليه ولسان حالها ينادي . يا أبت ارحم ضعفي . لا تتركني وحيدة في هذه الحفرة المظلمة . يا أبت إني لم أرتكب جرما استوجب عليه هذه القسوة . ولم أعص لك أمرا .

(1) المرأة العربية

حتى أكون من موضع غضبك ومحل انتقامك وسخطك، كأن بك تستصرخ ولا صريخ وتستغيث ولا مغيث، وأنى لك ذلك، وقد زين له الشيطان سوء عمله، ونزع من قلبه الرحمة والحنان فيدفنها حية بيديه ثم ينقلب إلى أهله فرحا مسرورا كأنه لم يأت إلا ما يستحق عليه حسن السمعة، ويزيل عنه وصف الشنعة.

فلما دخل الإيمان قلوبهم، وامتزجت تعاليمه وآدابه بنفوسهم، وسمعوا آيات الله تتلى عليهم ناهية عن قتل هذه الأنفس البريئة، والأرواح الطاهرة، مبينة لهم أن هذا العمل إنما هو من تزيين الشياطين، وسنة الأراذل (كَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ)(١)

على أن قتل الأولاد يستلزم ضياع ما كان يرجى من فوائدهم من النصرة والعزة والفخر والزينة، والبر والصلة، وفقد عاطفة الأبوة واستبدالها بالقسوة والفظاظة والشراسة وغير ذلك من مساوئ الأخلاق التي يضيع بها العيش في الدنيا، ويترتب عليها العقاب في الآخرة، ومن يرتكب هذا الجرم إنما هو سفيه أحمق جاهل بما ينفع وما يضر، وما يحسن وما يقبح (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)(٢)

جعل الإسلام قتل الأولاد من أكبر الكبائر عند الله، فقد ورد في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مجيبا لمن قال له يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله، قال (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) فقال السائل إن ذلك لعظيم ثم أي قال (أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعا وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال)

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الموءودة يؤتى بها يوم القيامة فتسأل بين يدي وائدها عن السبب الذي قتلت من أجله (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)(٣)

(١)، (٢) الأنعام (٣) التكوير

كيلوه

ليكون الجزاء أشد وقعاً على الوائد. حيث أنها ستجيب بأنها قتلت ظلما من غير
جرم ارتكبته أو إثم اقترفته. وفي ذلك ما فيه من الوعيد الشديد لمن تحدثه نفسه
بارتكاب هذا الجرم الشنيع.

فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها. حيث محا هذه العادة القبيحة.
وحفظ هذه الأرواح البريئة من الضياع. وأصبحت هذه النفوس الجامحة والقلوب
القاسية. والإحساسات العاتية. التي كانت لا تعرف للرحمة سبيلا. مملوءة
بالشفقة والحنان. يعطفون على أولادهم وبناتهم. يهذبون نفوسهم ويكملون
أخلاقهم. ويغذونهم بلبان الحكمة والتقوى والورع. ليعلمون أنهم مسئولون عنهم
بين يدي الله تعالى فهم رعيتهم وكل راع مسئول عن رعيته. معتقدين أن رزقهم
ورزق أبنائهم قد تكفل به الله تعالى الذي يرزق من يشاء بغير حساب. وأن
كل مولود يولد برزقه. وأن الأبناء زينة للآباء في شبابهم. وعون لهم إذا
بلغوا من الكبر عتيا. وأقعدتهم السن عن قضاء حوائجهم.

هذا وقد ظهرت في هذه الأيام بدعة سيئة. تنم عن سوء الاعتقاد بالله وعدم
الاعتماد عليه. ألا وهي بدعة تحديد النسل. ولعمري إنها لفكرة خبيثة وجرأة
غريبة وتجن على الطبيعة. وما أدري السبب الحامل لهم على هذا التحديد.
أهو خوف الفقر. وعدم القيام بشئون الأولاد. وتعليمهم في المدارس أم ماذا.
اللهم إن كان الغرض ذاك فبئس غرضهم. وساء منقلبهم. فهم بهذا يرجعون
إلى عادة الجاهلية الأولى التي قضت عليها الشريعة الغراء. أما دروا أن الذي
خلقهم هو الرازق لهم ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ • فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (١) فمن شك في نطقه شك في رزقه.

على أننا نشاهد أناسا قد رزقهم الله أولادا لا تحصى عدتهم الأعداد. ومع ذلك
فهم في رغد من العيش وسعة من المال. ومنهم من لا يملك ولدا ولا بنتا وهو
في ضيق من العيش. لا ينال اللقمة إلا بالكد والنصب. أنظر إلى من حولك من

(١) الذاريات

الوظيفة وهم من أشد الناس ولوعا ومبالغة البدعات فيهم من لا يتجاوز مرتبه عشرا من الجنيهات في الشهر، وعنده من الأولاد جم غفير يعلمهم وينفق عليهم وهو هادئ البال، مستريح النفس، شاكرا الله على أنعمه، ومنهم من يقبض المائة، وليس له حتى الزوجة، وهو في فقر مدقع، وذل دائم.

فنحن والأمة المصرية لا تزال من أحوج الدول أبناء وأفلاذ رجال، وهي في حاجة إلى النمو والازدياد، وخاصة في عهدها الجديد الذي يتطلب منها القيام بالمحافظة على استقلالها وشرفها، والوقوف بجانب الدول العظيمة وقفة الند للند، فهي في حاجة ماسة إلى جيش قوي متين يجوب صحراءها، ويقطع أوديتها، ويحفظ ثغورها، ويطوف سواحلها، وفي حاجة إلى إيجاد مصنوعات داخلية لتنهض اقتصاديا كما نهضت سياسيا، ولا غرو فإن ذلك يحتاج إلى كثير من الرجال.

على أنا نقول لهؤلاء الذين تحدثهم أنفسهم بتحديد النسل، بأي عدد تريدون التحديد، لنفرض أنكم تقولون بثلاثة أولاد أو أربعة مثلا، ألا يصح أن يموتوا جميعا بعد أن يصبح الزوجان غير صالحين للنسل.

كيف يكون الحال حينئذ، أيطلب الرجل الولد وقد فات وقته، أم يبقى على حالة تعتوره الحسرة والندامة، وفي ذلك ضياع للأمة وتقليل لسواد المسلمين الذين يحثهم نبيهم عليه الصلاة والسلام على التناكح والتناسل، ولم يرض من الرجل أن يتزوج امرأة لا تلد، فقد صح أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد أفأتزوجها، فنهاه، ثم أتاه الثانية فقال له (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم)(1)

أما الأحوال التي تعتور المرأة من إضرار كثرة الحمل والولادة، فلكل حادثة لها حكمها وتقدر بقدرها.

(1) الحديث رواه أبو داود والحاكم

فتحي محمد

فتعدد الخدن، أمر لا يقره شرع ولا عقل، ولكنه الشهوات تطغى على النفوس حتى ترى القبيح حسناً، والرذيلة فضيلة، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده).

(الوصية الرابعة النهي عن الفواحش)

قال تعالى (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)

صلة الجملة بما قبلها :

لما نهى الله سبحانه وتعالى فيما تقدم عن قتل الأولاد، أعقبه بالنهي عن الزنا لأنه قتل معنوي.

على معنى أن الله لما نهى عن قتل الأولاد، نهى عن التسبب في إيجادهم من غير الطريق المشروع، لأن الإيجاد من طريق غير مشروع قتل حكماً.

المفردات :

الفواحش : جمع فاحشة، والفاحشة : الزنا وما يشتد قبحه من الذنوب، وكل ما نهى الله عز وجل عنه كما في القاموس، والمراد به هنا الزنا خاصة.

الإعراب :

هذه الجملة معطوفة على ما تقدم، وقوله تعالى (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) بدل مفصل من مجمل.

المعنى :

نهى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة، عن مقاربة الفاحشة (وهي الزنا) فلزم النهي عنه بأبلغ وجه، حيث نهى عن دواعيه، كاللمس والتقبيل، والخلوة بالأجنبية، وغير ذلك مما يأخذ بمجامع القلوب، ويفضي إلى ما لا يقتضيه عقل ولا شرع.

نهى الله عن ذلك بقوله (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ) أي لا تقربوها أي قرب

بمباشرة شيء من المقدمات التي تؤدي إلى الفساد، ولو كان بالعزم لأن العزم على إتيان المحرمات محرم إذا صمم عليه.

والمراد بالفواحش هنا الزنا خاصة، والجمع إما للمبالغة أو باعتبار تعدد من يصدر عنه أو المقصود.

النهي عن الأنواع وحمل الفواحش على الزنا هو الذي يقتضيه المقام ويتناسب مع سياق الكلام، فإن الله لما نهى عن قتل الأولاد وكان الزنا مؤديا إلى ذلك كما عرفت صح ذكره بعده، لأن الزناة يلقون نطفهم في حرام فيتولد منها مخلوقات قد يعتدي عليها بالقتل وهي أجنة أو قريبة عهد بالوضع فتستتبع فاحشة الزنا جناية قتل الأولاد بغير حق، وإن سلم ابن الزنا من القتل عاش محتقر الجانب ذليل النفس مقطوع النسب، ولا شك في أن هذا موت حكما.

وحمل الفواحش على العموم يؤدي إلى ضعف في سياق الكلام حيث يكون قد نهى أولا عن قتل الأولاد وهو فاحشة في نفسه، ثم أعقبه بالنهي عن الفواحش مطلقا، ثم عطف عليه النهي عن قتل النفس بغير حق، فلزم أن يكون قد نهى عن أمر خاص أولا، ثم نهى عن أمر عام ثانيا، ثم عطف عليه النهي بأمر خاص بعد. ولا غرو في أن ذلك اضطراب لا يتناسب مع أسلوب القرآن الكريم.

وقد اختار التخصيص من المفسرين العلامة أبو السعود والألوسي تبعا لابن عباس رضي الله عنهما. يؤيد ما ذهبنا إليه ما جاء في سورة الإسراء من النهي عن قربان الزنا صراحة، بعد النهي عن قتل الأولاد، ثم أردفه بالنهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾(١)

فهذا صريح في الدلالة على أن المراد بالفواحش الزنا خاصة، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا، وقوله جل وعلا ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ إشارة إلى أن الواجب الابتعاد

(١) الإسراء

عن الزنا علانية وسرا. وكان عقلاء الجاهلية يستقبحون الزنا ويعدونه من أكبر العار، ولا سيما إذا وقع من الحرائر. ولذلك كان وقوعه بينهن نادرا. وإنما كان الإماء يجاهرن به في حوانيت ومواخير تمتاز بأعلام يختلف إليها أراذلهم.

أما الأشراف، فكانوا يزنون سرا بمن يتخذونهن من الأخدان والصديقات. فمنهم من عف عن إتيان هذه الفاحشة سرا وعلانية. ومن كف نفسه عن الوقوع فيها علانية وارتكبها سرا، لا يكون امتناعه عنها لأجل عبودية الله وطاعته، ولكن لأجل الخوف من الناس واتقاء مذمتهم. ومن كانت مذمة الناس عنده أعظم من عقاب الله تعالى، فإنه يخشى عليه سوء العاقبة، والعياذ بالله تعالى.

أما من ترك المعصية ظاهرا وباطنا دل ذلك على أنه إنما تركها تعظيما لأمر الله تعالى، وخوفا من عقابه ورغبة في عبوديته، ورجاء ثوابه.

(مضار الزنا في الحياة الاجتماعية)

الزنا شر مستطير وفساد عظيم، يدنس الأعراض، ويهتك الأستار، ويقوض أركان المجتمع.

الزنا: معول يهدم الحياة الزوجية، وصاعقة شديدة يقذفها الزناة لهدم بناء المجتمع الإنساني. ولا شك أن الصواعق إن تتابعت ولو على صرح هدمت بنيانه، وشوهت جماله، وأتت عليه من القواعد.

والزنا: مطية سوء الطوية، وخبث السريرة، وضعف الإيمان، وفساد الخلق. لهذا قد عنيت الشريعة المطهرة بتفظيع أمره، والمبالغة في حظره وتحريمه، وقد نهت عنه بأسلوب يدل على شدة العناية، حيث عم النهي حتى مقدماته وقرباته.

بينما نجد النهي في معظم المنكرات غيره منصبا على ذواتها كقوله تعالى: (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)، (ولا يغتب بعضكم بعضا)[1]، (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه)[2] إلى غير ذلك من الآيات. ما ذاك إلا لما يترتب عليه من مفاسد وما يلحق الإنسانية من مضار

(1) الحجرات - (2) البقرة

ألم يكن الزنا سببا لإثارة العداوة بين الزاني وزوج مزنيته مفسداً على الزوج بيته مشتتاً لأسرة كانت تتمتع بنعمة الاجتماع والتعاون على شؤون الحياة.
ألم يكن هذا الوغد الخائن هو المفرق بين الزوجين المتحابين الهادم لبناء الزوجية الجالب لهما الشر المستمر والبلاء الدائم. وناهيك بما يحدث من العداوة بين هذا الزاني وأهل تلك المرأة فإنهم قد ينتقمون منه لعرضهم الذي انتهك، وشرفهم الذي انثلم، وحرماتهم التي استبيحت. وربما قضوا على حياته جزاء عمله فإن العرض أغلى شيء عند النفوس الحرة الكريمة. ومتى فقدت المرأة عفافها وشرفها، وشعرت بالخيبة في الحياة فلا تلبث أن تراها تتوارى خجلا من أهلها وذويها، حتى إذا ضاق ذرعها عمدت إما إلى الانتحار، وقل أن تهون عليها نفسها، وإما إلى السقوط في تلك البؤر الفاسدة بؤر الشقاء والآلام بؤر البغاء السري أو العلني.
ألم يكن الزنا سببا في ظلم الجنين الذي قد يخرج ولا عائل له ولا معين ضائعا منبوذا، وهو أشد ما يكون حاجة للكفيل والعائل يعيش مطأطئ الرأس مهيض الجناح ذليل النفس، حاملا للعار والصغار بلا جناية اقترفها ولا ذنب ارتكبه، يتبرأ منه كل أحد حتى من يعلم أنه قذفه في بطن أمه فهو الجدير بقول الشاعر:

غيري جنى وأنا المعذب فيكمو ❁ فكأنني سبابة المتندم

أو كان المعنى بقوله هذا جناه أبي علي وما جنيته على أحد.
هذا إذا لم تقض عليه تلك البغي قبل أن يستنشق نسيم الحياة أو وهو في المهد.
ألم يكن الزنا ظلما لذوي قربى المرأة لأنه يلحق بهم الخزي والعار والمذلة والاحتقار
ألم يكن الزنا ظلما لزوج الزانية إن كانت ذات بعل إذ يلحق بفراشه من لا يرتبط به بسبب ولا نسب فيلزمه نفقته في حال حياته، ثم يرثه بعد موته بلا حق شرعي، فالزاني لص يسرق أعراض الناس وثروتهم في حياتهم وبعد مماتهم

الزاني ظالم لأبناء ذلك الرجل، حيث جعل لهم شريكا أجنبيا عنهم، فيما جعل الله لهم من رزق حلال.

الزاني ينادي على نفسه بأنه محروم من أدب سام أرشدت إليه الشريعة الغراء ذلك لأن كل إنسان عنده مسكة من عقل يحب لمن ينتمي إليه من بنت أو أخت أو أم أو زوجة، وهلم جرا أن يكن المثل الأعلى في العفاف والشرف والطهر بما هو في صيانتهن حتى النفس الأخير من حياته. فإذا كنت تحب هذا لنفسك فمن ثمرات الإيمان الصادق والخلق المهذب. والأدب السامي أن تحب لمحارم غيرك من العفاف والطهارة ما تحب لمحارمك. على أن الزاني بارتكابه هذه الفاحشة استنفاد تكون غيرته على محارمه ضعيفة أو مسلوبة، وإن محارمه إذا شعرن منه بارتكاب ذلك سقطت مرتبته من نفوسهن، وسهل عليهن بذلا أعراضهن وربما حمل زوجته إن كان متزوجا على البغاء مثله. فيكون هو وزوجه مثلا سيئا لذريتهما. وفي ذلك من مفاسد الأخلاق ما فيه. وقد ورد ما يشير إلى ذلك في السنة المطهرة، فقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم»(1)

ومتى كان الرجل صالحا ذا عفة والمرأة كذلك نشأ من بينهما أبناء صالحون وذرية تقتفي أثرهما، وتقتدي بهما فيصلح المجتمع ويرتفع شأنه، ويعيش الناس في هناءة وسرور حافظين دينهم ومكانتهم وأموالهم.

ألا ترى أن كثيرا من الناس فقدوا أموالهم بسبب امرأة بغي فاجرة وأصبحوا لا كرامة لهم في الوجود بل كثير منهم أصبحوا أعضاء أشلاء في جسم الأمة بسبب هيامهم بامرأة زانية بعد أن كانوا في أمتهم يشار إليهم بالبنان وترمقهم الأعين بالإجلال والاحترام.

هذا قليل من كثير من نتائجه السيئة وآثاره الخبيثة الضارة بالحياة الاجتماعية مما إن كان فاحشة وساء سبيلا.

(1) رواه الطبراني بإسناد حسن

هذه طائفة من مضار الزنا اجتماعيا، أما مضاره صحيا فاسمع نحدثك عنها قليلا.

(مضار الزنا صحيا)

ليس ضرر الزنا مقصورا على الناحية الخلقية في الحياة الاجتماعية فحسب بل هو قاصر على الزاني من جراء ما يصيب الزاني من أمراض فتاكة قد تتعداه إلى أهله وبنيه من طريق العدوى، فيصيب الرجل زوجه بالجماع بل بمجرد الملامسة أو باختلاط الملابس، وقد تنتقل العدوى إلى ابنه أو ابنته، وربما كانا طفلين صغيرين لا ذنب لهما إلا ما جنته يد أبيهما، وأسرع الأمراض فتكا ونقلا للعدوى هو مرض السيلان الذي تصل جرثومته إلى الدم فتمر سراعا في الدورة الدموية ولا تترك جزءا من الجسم إلا آلمته فيشكو المريض من ألم في المفاصل وربما حدث له ألم وورم في الأنثيين، قد ينتشر في الحالبين وقد يسبب رمدا صديدا في العينين.

ومن مضار الزنا ما يلحق الزاني من مرض الزهري، وهو مرض خطير يحول حياة الشاب من حياة سعيدة مرحة إلى شقاء وعذاب مقيم، وهذا المرض له درجات ثلاث.

الدرجة الأولى : القرحة الزهرية.

ويبتدئ وقتها بعد الجماع أو الملامسة بأسبوعين تقريبا، فيشعر الإنسان بقرحة صغيرة في مكان اللمس أو الجماع، وتكون غير مؤلمة، ولكنها تتسع شيئا فشيئا، وكلما كبرت جمدت وتصلبت وارتفعت عن سطح الجسم وتمكث مدة طويلة حتى تأخذ دورها، ثم تندمل وتجف فيظن صاحبها أنه قد تم برؤه ولكن الأمر غير ذلك، بل قد انتقل (الميكروب) من موضعه وصار في الدورة الدموية حيثما ينمو ويتضاعف ويظهر أثره في كل الجسم، وبهذا ينتقل من الدرجة الأولى إلى الثانية.

الدرجة الثانية (الطفح)

وهذه الدرجة تحصل بعد ثلاثة أشهر من ظهور القرحة فيرى المريض طفحاً قد انتشر في جميع جسمه يشبه طفح الحصبة عند الأطفال فتوجد بقع حمراء مختلفة الحجم والشكل قد غطت الجسم بأجمعه وتكون مؤلمة خصوصاً في اللسان وسقف الفم وداخل الأنف وما شاكل ذلك.

الدرجة الثالثة (الجاما) أو تكون التورمات الليفية.

يظل المريض هادئاً مدة لا تقل عن عشر سنوات وبعدها يشعر بشلل فجائي نصفي أو كلي أو عمى بصره أو وقوف دقات قلبه بدون سابق إنذار وتضخم الكبد تضخماً ينتهي بجفافه وانكماشه حتى يصبح قطعة من الأنسجة الليفية لا عمل لها في الجسم فيسبب الموت على أن هذا المرض ليس قاصراً على شخص الزاني أو من أصابهم بدائه من طريق العدوى مباشرة بل يبقى في نسله أجيالاً بعيدة هذه نبذة يسيرة من تقارير الأطباء تبين لنا مقدار ما يجلبه الزاني لنفسه وأسرته من الشقاء العاجل والآجل وهذا جزاؤه في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.(1)

(الزنا عند جميع الأمم منكر)

الزنا عند كل الأمم منكر مرذول وكان لكل أمة عقاب خاص لمن يقترف هذا المنكر القبيح وقد وردت في كتب الأمم السابقة وآثارها وصايا كثيرة تحذر الوقوع في الزنا. فقد جاء عن المصريين القدامى قولهم لا تترك قلبك ألعوبة في الميل نحو النساء فإن ذلك يذهب بقوة دينك وعلو شرفك وأدب نفسك فالمرأة بما أوتيت من الدهاء وتأثير الأنوثة من أقوى حبائل الشيطان وهي كالبحر العميق الذي لا يرحم من استهواه إلى قراره وإذا كتبت إليك امرأة عن غياب زوجها واستدعتك للتردد إليها لهذا السبب فاعلم أنها تنصب لك شباك الهلاك لأن النفس أمارة بالسوء والموبقات تجر من يسعى إلى الوبال وغائلة المرأة

(1) منتظف من سلسلة مقالات للدكتور الفاضل رجب سعد محمد غانم نشرها في مجلة القنيلم

لا تقاسمه فى مدنك الشهوانية.(1)

وقد جاء فى التوراة من الفصل العشرين من سفر الخروج. النهى عن الزنا بما يأتى.
(لا تزنِ ..... لا تشته امرأة قريبك ولا أمته ولا شيئا مما لقريبك) وفى انجيل متى فى الإصحاح الخامس. قد سمعتم أنه قيل للقدماء (لا تزن). وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها. فقد زنا بها فى قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها والقها عنك لأنه خير أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها والقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم) فجميع الأديان متفقة على شناعة الزنا وقبحه. وقد صرح صاحب دائرة معارف القرن العشرين بذلك حيث قال.
(والزنا حتى الآن لا يزال فى نظر الإنسانية من أفظع الجرائم وأعداها على نظام الاجتماع وسلامة الآداب) كما نقل عن دائرة أخرى هذه العبارة إنكار كون الزنا من الجرائم يعتبر حطا من قيمة قانون الزوجية الذى يؤسس المسئولية الأبدية على عهدة الزواج. بالزنا يتسرب إلى الأسرة الخيانة والشقاق ويسلب الأم احترام أولادها. والأولاد حب وعناية آبائهم. والأب غبطة الأبوة. ولذلك ترى جميع قوانين البشر تعاقب على الزنا ولنضرب لذلك أمثلة.

الزنا عند العبرانيين عقابه على المرأة الرجم. وفى الهند عقاب الزانية أن تترك للكلاب الجائعة تأكلها حية. ويحرق شريكها فى الجريمة. وكانت قوانين المصريين القدماء تعاقب الزانى بالقتل ثم خففت بعد ذلك. فكانوا يحكمون على المرأة بقطع أنفها. وعلى الرجل بمائة جلدة.

وأما أهل أثينا. فكانوا يعاقبون المرأة عقابا شديدا ولكنه دون القتل. بل قد بلغ من فظاعة هذا الجرم عند بعض الأمم أن حذفته من قوانينها فلم تنص عليه. فقد زعموا أن المشرع الإسبارطى المشهور (ليكورغ)

(1) مقتطف من ورقة بردى تعرف (ببردية بولاق) بالمتحف المصرى

لم يشأ

لم يشأ أن ينوه عن هذه الجريمة في قوانينه. بحجة أن هذا الجرم من الفظاعة بحيث لا يليق أن تنوه به القوانين أو تضع له عقوبة؟.

(حد الزنا في الشريعة الإسلامية)

أباح الله تعالى للمسلم من النساء مثنى وثلاث ورباع. وله أن يستبدل بهن غيرهن من النسوة ما طاب له في حدود الشرع. فهل بعد هذا التسامح والتساهل في الزواج يصح أن يكون بين المسلمين من تحدثه نفسه بارتكاب هذه الفاحشة الشنعاء التي تقشعر لها الأبدان وتشمئز منها النفوس الطاهرة.

إن النفوس المؤمنة حقا لا تخرج عن حدود الله التي أوضحها وبينها للناس. ولكن من النفوس نفوس خائنة وضيعة. تأبى إلا أن تقيم في حمأة الفساد والضلال. تأبى إلا أن تدنس الأعراض الطاهرة. وتهتك الأستار المسدولة. لا تتمسك بدين يردعها. ولا بعقل يزجرها. ولا بإيمان يقيها الوقوع في المهلكات. تلك نفوس انحطت إلى درجة الحيوانية. ولم تبال بما تجلبه للمجتمع من مصائب وآلام. فما الذي يخلص المجتمع من شرها وبلائها. أالسجن الذي يقضي فيه المرء زمنا محدودا ثم يعود إلى سيرته الأولى. أم ماذا؟! اللهم لا شيء يقي المجتمع من أضرار هذه النفس التي طفقت على الرذيلة، وغمرها الفساد إلا ما قررته الشريعة الغراء. لأن النفس البشرية إذا تدنست ومرضت فإن مرضها أشد من مرض الأبدان خطرا. وأشد تأثيرا وانفعالا. ومرضها قد يصل بها إلى حد الموت الروحاني بإبطال خاصة الإنسانية من العلوم والمعارف. والأسرار والأنوار. وإذا لا تنفعها الموعظة والإرشاد. وتكون حربا على الأخلاق والآداب والفضيلة.

لذلك اقتضت حكمة علام الغيوب أن يطهر المجتمعات من هذه الأمراض الشائنة بعقاب يردعها ويردع كل من تحدثه نفسه بارتكاب مثل هذه الجريمة. فجعل عقاب الزاني المحصن الرجم بالحجارة مع المهانة والاحتقار. والنبذ كما ينبذ أدنى الأشياء وأخبثها. فيرمى بالحجارة كما ترمى الحشرات المؤذية من الحيات والعقارب والهوام التي

تشمئز النفس من مجالستها.
أما غير المحصن فقد راعت الشريعة شيئا من العذر له لأنه باشر شيئا لم يذقه قبل على وجه مشروع، فهو عرضة لأن يلعب به الشيطان، ويخيل إليه أن هذا الأمر فيه من اللذة ما يتوق إلى تعرفها، فجعلت الشريعة له عقوبة تجمع بين الإيلام والإيذاء وهي جلد مائة جلدة كما قال تعالى (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)(١)
وفي هذا معنى التحقير والإلحاق بالبهائم التي تؤدب بالضرب الوجيع، فكأنه الحق بمن لا عقل له، وضمت إلى عقوبته فضيحته والتشهير به (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)
هذا شأن الزنا في نظر الشارع الحكيم، وذلك عقاب الزاني في الدنيا، وأما في الآخرة، فقد أعد الله له جهنم جزاء ما قدمت يداه، ومن يفعل ذلك يلق أثاما.

(نظرة إجمالية في حالتنا الأخلاقية وعلاجها)

أهمل أكثر الناس التربية الدينية والتعاليم الإسلامية، واتبعوا أهواءهم فغلبتهم الشهوات، وساروا وراء تمدين كاذب مقلدين الغربيين في كل ما يأتونه من السيئات، ويا ليتهم قلدوهم في الصناعة والتجارة والفنون الحربية وغير ذلك مما تسمو به الأمم وتتقدم به الشعوب، ولكنهم أهملوا كل ما عندهم من حسن، وأخذوا عنهم كل مرذول قبيح.
فها نحن أولاء نرى النسوة في هذا العصر الذي يظنونه عصر التقدم والتمدين يخرجن من بيوتهن قد نزعن الحواجب، وكحلن العيون، وصبغن الخدود، وعليهن من الملابس الضيقة ما يكاد يشف عما تحته، يسرن في الطرقات من غير أدب ولا احتشام، قد أبدين زينتهن لكل من يمد عينيه إليهن، كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رؤوسهن مثل أسنمة البخت.

(١) سورة النور

كأنه

كأن إحداهن لا تدري أين عورة، إذا خرجت استشرفها الشيطان ليغويها أو يغوي بها. يخرجن متبرجات تبرج الجاهلية الأولى، يختلطن بشبان قد غمرتهم الشهوة وأضلهم الجهل بتعاليم دينهم، ولعب الشيطان برؤوسهم فهم لا يعرفون من الدين إلا اسمه، لم تمتزج تعاليمه الطاهرة بنفوسهم حتى تجعل بينهم وبين الرذيلة سدًا وحجابًا.

اختلط الرجال بالنساء، وزاحم النساء الرجال بالمناكب في كل مكان، حتى ضاقت بهن الشوارع، وأطت منهن المتنزهات العامة، وضجت الفضيلة، وظهر الفساد في البر والبحر، وأصبح من اليسير على الرجل قضاء إربته بدون مشقة ولا عناء، فساءت الحال، وعمت البلوى، ورغب الشبان عن الزواج، وغلبهم سوء الظن بالنساء لما وقعن فيه من التبرج الممقوت الذي جر إلى هذا الشر المستطير، فصدق عليهن قول الشاعر:

عرضنا أنفسًا عزت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوان

ولو أنا منعناها لعزت ... ولكن كل معروض يهان

لقد أصبح انصراف الشبان عن الزواج في ازدياد، حتى ظهر في مظهر ينذرنا بسوء المنقلب، وليس بعد سوء المنقلب إلا الانقراض.

إن اختلاط الجنسين تأباه الكرامة، ولا يليق بأمة دينها يدعو إلى مكارم الأخلاق، والحث على الفضيلة، ويحرم كل ما يؤدي إلى الشر تحريمًا باتًا، ويدعو إلى قطع شأفته وحسم جرثومته، بل إن عقلاء الغربيين اليوم حيارى، لا يدرون كيف يدفعون عن بلادهم وأممهم جميعًا هذه الفتنة، فتنة اختلاط المرأة بالرجل، وهم جازمون بأن عاقبة ذلك سقوط الفضيلة، وشيوع الرذيلة، وموت الأخلاق والآداب.

تقول (اللادي كوك) الكاتبة الشهيرة في جريدة (الإيكو) ما يأتي:

على قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا، وهنا البلاء العظيم على

المرأة . فالرجل الذي علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على مضجع الفاقة والعناء وتذوق مرارة الذل . والمهانة والاضطهاد بل الموت .

أما الفاقة فلأن الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذي تحصل به قوتها . وأما العناء فهو كأنها تصبح شريدة حائرة لا تدري ماذا تصنع بنفسها وأما الذل والعار فأي عار بعد هذا . وأما الموت فكثيرا ما تفجع المرأة نفسها بالانتحار . هذا والرجل لا يلم به شيء من ذلك . أما آن لنا أن نبحث عما يخفف إذا لم نقل يزيل هذه المصائب التي تعود بالعار على المدنية الغربية . أما آن لنا أن نتخذ طرقا تمنع قتل ألوف الألوف من الأطفال الذين لا ذنب لهم . يا أيها الوالدان لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن في المعامل ونحوها ومصيرهن إلى ما ذكرنا علموهن الابتعاد عن الرجال أخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بسبب ذلك . لقد دلنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من حمل الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط النساء بالرجال .
لقد أدت بنا الحال إلى حد من الدناءة لم يكن تصورها بالإمكان ويلاه من هذه الحالة التعيسة .

ألا يقرأ هؤلاء الذين ينادون بالاختلاط ويرونه من علامات التقدم مقال هذه الكاتبة ليطلعوا على آراء سيداتهم الذين يقلدونهم في كل أمر ولكني أظنهم لا يقلدونهم إلا فيما فيه شر وتبذل أما الإصلاح والخير وكل ما فيه فائدة لبلادهم فهم بمعزل عنه ألا ساء ما يفعلون .

وتقول الكاتبة الشهيرة (مس آني رود) لأن يشتغل بناتنا في البيوت خادمات خير وأخف بلاء من اشتغالهن في المعامل حيث تصبح البنت ملوثة بما يذهب برونق حياتها إلى الأبد . ألا ليت بلادنا كبلاد الإسلام فيها الحشمة والعفاف والطهارة .

أجل . إن الدين الإسلامي جمع بين الحشمة والعفاف ولكن الجهل بتعاليمه

أوقع بغيه في الخيبة والندامة، وأصبحوا أذلاء بعد أن كانوا هم السادة في أنحاء العصور.

هذا وصف للحالة الأخلاقية في بلادنا المصرية، وخير علاج لهذه الأمراض نجمله فيما يأتي:

١- ليس من شك في أن الرجوع إلى الحدود الشرعية وإقامتها على كل من وجبت عليه هو خير علاج للقضاء على هذه الأمراض المتفشية في المجتمع، فإقامة الحدود هي التي تكون سببا في تقدمنا، والمحافظة على شرفنا وأرواحنا وعزتنا القعساء، وإحياء مجدنا التالد، وتاريخنا القديم، بل لو كانت الحدود الإسلامية تنفذ بمقتضى القانون السماوي أكنت ترى جراثيم اللؤم والخيانة وأهل الرذائل والدناءة الذين لا هم لهم إلا تمزيق أعراض الناس وأكل لحومهم، يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات من الأسر الكريمة، والبيوتات المتدينة بما تذوب له القلوب أسفا، وتتفتت له الأكباد حزنا.

لذا نناشد الحكومة المصرية التي ملأت السجون حتى ضاقت بمن زج فيها، وأظلمت وجوهها للكثرة، أن تجرب الحدود الشرعية، ولو في بعض الأثمة، كما تجرب وزارة الزراعة بعض النباتات في حقولها، وإني لعلى ثقة بأنها ستريح نفسها مما تلاقيه من عناء شديد في المحافظة على الأمن، ومراقبة المجرمين، وكثرة القضايا، وستضع عن كاهلها عبئا ثقيلا، وحملا باهظا.

٢- القضاء على التبرج والسفور بسن قوانين صارمة تعاقب كل من تخرج متبذلة متبرجة.

٣- تربية النشء تربية دينية صحيحة، حتى تتمكن العقيدة الدينية في نفوسهم، وترسخ الأخلاق الفاضلة فيهم، رسوخ الشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، فإن الدين هو الذي يزكي النفوس ويطهرها، فلا ترى القبيح حسنا، ولا الخبيث طيبا.

٤ - فرض ضريبة على كل أعزب قادر على الزواج صحيح البدن بشرط أن لا تقل سنه عن ثماني عشرة سنة، ولا تزيد عن الستين حتى تطهر النفوس من محاكاة الإباحيين في الإعراض عن الزواج.

٥ - أن يبادر ولاة الأمور بإلغاء البغاء، وجعل البغايا في معزل تحت إشراف الحكومة، والحجر عليهن ومراقبتهن وشغلهن بعمل نافع، وإذا رغبا فيهن من يريد البناء بإحداهن يسرت له السبل على شرط ألا يكون من ذوي الأخلاق الفاسدة المعروف بعدم الغيرة.

٦ - أن يقوم علماء الدين، وعلماء الاجتماع ببث روح الفضيلة بين طبقات الشعب ومحاربة الرذيلة بكل الطرق على أن يزودوا بما يكفل لهم نفاذ دعوتهم إلى الله.

هذه طائفة من طرق الإصلاح التي يجب أن ننادي بها، وأن نعمل على تنفيذها حتى تعود إلى الإسلام قوته وجماله. (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)(١) (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)(٢)

وإني أختم هذا الموضوع بكلمة فيما ورد في النهي عن الزنا.

(كلمة فيما ورد في النهي عن الزنا ومقدماته في الشريعة الإسلامية)

لما كان الزنا ضرره عظيما حذر الله تعالى عن كل ما يوصل إليه من نظرة أو اختلاط أو خلوة أو غير ذلك. قال تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ۝)

وقد جعل الله من فلاح المؤمن وكمال إيمانه المحافظة على فرجه (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝)(٣) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة

وقد

(١) يوسف عليه السلام (٢) هود عليه السلام (٣) المؤمنون

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الزنا تبين أن له نتائج قبيحة فهو يورث الفقر، ويذهب البهاء، ويقصر العمر إلى غير ذلك من المساوئ.

أخرج البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام (إياكم والزنا فإن فيه ست خصال، ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا فذهاب البهاء، ودوام الفقر، وقصر العمر، وأما التي في الآخرة فسخط الله تعالى، وسوء الحساب، والخلود في النار) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم، شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)(١) وعن ميمونة رضي الله عنها، قالت، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا، فأوشك أن يعمهم الله بعذاب)(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا زنا الرجل خرج منه الإيمان، فكان عليه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان)(٣) وقال عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم (النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها وما بها بأس، فيستشرفها الشيطان، فيقول إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتيه، وإن المرأة لتلبس ثيابها، فيقال أين تريدين، فتقول أعود مريضا، أو أشهد جنازة، أو أصلي في مسجد، وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها)(٤) وروى الترمذي وابن خزيمة، وابن حبان عنه أيضا. قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من وجه ربها وهي في قعر بيتها)

هذا قل من كثر مما ورد في التحذير عن الزنا واختلاط الرجال بالنساء، وخروجهن من بيوتهن سافرات، متبرجات، متعطرات.

(١) الحديث رواه مسلم والنسائي (٢) رواه أحمد (٣) الحديث رواه أبو داود (٤) رواه الطبراني بإسناد حسن

(الوصية الخامسة النهي عن قتل النفس)

قال تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)

وجه الربط:

لما نهى الله سبحانه وتعالى عن قتل الأولاد وما في معناه، نهى تبارك وتعالى عن مطلق القتل العدواني، فيكون من عطف العام على الخاص.

المفردات:

القتل تقدم معناه، النفس هي الروح، والروح هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وقتل النفس عبارة عن التسبب في مفارقتها للجسد. وتحريم الله قتلها: منع الناس من إزهاقها، والحق ضد الباطل، والمراد به هنا إباحة الشارع القتل فيما استثنى كما سيأتي.

الإعراب: الجملة معطوفة على ما قبلها، والتي حرم الله صفة للنفس والمفعول محذوف تقديره قتلها، وقوله إلا بالحق استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أو من أعم الأسباب، أو من أعم المصادر.

المعنى:

نهى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن قتل النفس بغير حق شرعي مستمد من كتاب أو سنة أو إجماع. أي لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها بأن عصمها وحقن دمها بالإسلام أو بالعهد أو بسبب من الأسباب. وأل في النفس للجنس أي لا تقتلوا نفسا ما من الأنفس التي حرم الله، وقوله (إلا بالحق) أي لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذي هو أمر الشرع بقتلها، وذلك بالكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان وقتل النفس المعصومة، أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق وهو ما ذكر، أو لا تقتلوها قتلا ما، إلا قتلا كائنا بالحق، وهو القتل بأحد الأمور الثلاثة المتقدمة، كما ورد في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

قال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة) وفي لفظ لمسلم (والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم)

وقد ورد عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسا بغير نفس) فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لي بديني بدلا منه بعد أن هداني الله، ولا قتلت نفسا فبم تقتلونني)[1]

والقرآن دل على سبب رابع، وهو قوله تعالى (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا)[2]

وقد جاء الزجر والنهي والوعيد الشديد في قتل المعاهد، وهو المستأمن من أهل الحرب.

وروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما)

(القتل هادم لبناء المجتمع)

الإنسان هو المقصود في هذه الحياة، إذ تنبني عليه عمارة الدنيا وما عداه من نبات وحيوان وشجر ومدر، فإنما وجد لينتفع به ويستفيد منه، وقد رسم الله له الأسس التي تبين ما يجب على كل فرد من أفراد المجتمع نحو نفسه وغيره. فإذا ما تمسك الناس بهذه التعاليم السماوية عاشوا هادئين مطمئنين تحفهم الرحمة وتحوطهم العناية، وقد حذر الله تعالى الإنسان من ارتكاب كل ما من شأنه إثارة النفس مما يكون سببا في إيجاد التباغض والفتن والاضطرابات التي تفضي إلى قتل النفس التي هي جزء من أجزاء المجتمع وعضو من أعضائه (المسلمون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر

(١) رواه النسائي وأحمد والترمذي وابن ماجه (٢) الآية سورة المائدة

الأعضاء بالحمى والسهر ، فقتل النفس يؤدي إلى فساد عظيم وشر كبير حيث يعمد أهل المقتول إلى الأخذ بثأرهم ، وأهل القاتل يقفون موقف المدافعين عن أنفسهم الذائدين عن حوزتهم لأنهم يرون في تسليمهم القاتل ضعفا واستكانة وخورا وجبنا ، فيشتد الخصام ، ويتطاير الشرر ، وهنا البلاء العظيم والخطب الجسيم ، هنا تزهق الأرواح ، وتراق الدماء ، ويصبح الطرفان في هرج ومرج ، لذلك حرم الله القتل تحريما باتا ، وجعل جزاء القاتل جهنم (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)(١)

ووردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تدل على فظاعة هذا الجرم وشناعته وشدة غضب الله على فاعله ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هن قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)(٢)

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن زوال الدنيا وفناءها لا تعدل عند الله قتل الرجل المسلم ، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم)(٣)

وإن إبليس اللعين عدو الإنسان المبين الذي أقسم ليغوين الناس أجمعين إلا عباد الله المؤمنين ، ليسره أن يقتل المسلم أخاه المسلم حتى أن أحب أعوانه إليه هو الذي يأتيه بمثل هذا الخبر ، ورد عن أبي موسى ~~الأشعري~~ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول من أخذل اليوم مسلما ألبسه التاج قال فيجيء هذا فيقول لم أزل به حتى طلق امرأته ، فيقول أوشك أن يتزوج ويجيء هذا فيقول لم أزل به حتى عق والديه فيقول يوشك أن يبرهما ، ويجيء هذا فيقول لم أزل به حتى أشرك ، فيقول أنت أنت ويجيء

(هذا)

(١) سورة المائدة (٢) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي (٣) الحديث رواه مسلم والنسائي والترمذي

هذا فيقول لم أزل به حتى قتل. فيقول أنت أنت. ويلبسه التاج[١] وليس النهي عن القتل قاصرا على قتل المسلم. بل وكذلك المعاهد وأهل الذمة الذين يؤدون الجزية. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما)[٢] وفي رواية للنسائي (من قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها لتوجد من مسيرة سبعين عاما) وقال تعالى

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)[٣]

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يحضر الرجل قتل آخر فقال (لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه) إلى غير ذلك مما يدل على أن نفس القاتل صارت بالقتل شر النفوس، وأشدها رجسا وأبعدها عن موجبات الرحمة والشفقة، لأنه أقدم على أمر له خطره، وهو العمل على هدم الحياة الاجتماعية.

(قتل الإنسان نفسه)

هذا وليس العقاب قاصرا على من يقتل غيره. بل ولو كان قاتلا نفسه فإن نفسه ليست ملكا له يتصرف فيها أنى شاء له هواه. بل هي ملك لله الذي خلقها وأودعها هذا الجسم، وملك للمجتمع الذي يعيش هو فيه، حيث أنه يتكون منه ومن غيرها، فإذا قتل المرء نفسه. فقد جنى عليها، حيث حرمها الحياة فاستحق العذاب في الآخرة. وقتل الإنسان نفسه يدل على اليأس والجزع وعدم الرضا بقضاء الله وقدره. لذلك كان عقابه في الآخرة شديدا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا. ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالدا مخلدا

(١) الحديث رواه ابن حبان في صحيحه (٢) رواه البخاري (٣) سورة الممتحنة (٤) رواه الطبراني والبيهقي بإسناد حسن

فيها أبدا[١] ولأبي داود من حسا سما فسمه في يده يتحساه في نار جهنم.
وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الذي يخنق نفسه يخنقها في النار والذي يطعن نفسه يطعنه نفسه في النار، والذي يقتحم يقتحم في النار)

(القصاص في الأسلام)

حفظت الشريعة الإسلامية الدماء من أن تهدر، والأرواح من أن تزهق حماية لكيان المجتمع، وإبقاء على سلامته من الفساد من القتل، وصانته من كل ما يؤدي إلى خراب العالم وفساده، وحذرت من الوقوع فيما يؤدي إلى هدم الوحدة الإجتماعية وتقويض بنيانها وتصدع أركانها.

لهذا أوجب الله تعالى القصاص على كل معتد على غيره فقال جل شأنه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى)[٢] وقال تعالى (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)[٣]

فالقصاص من المعتدي هو خير علاج للنفوس الجامحة التي سقطت في حضيض الخسة والدناءة، وأصبحت كالوحش الضاري، يفترس فريسته في غير شفقة ولا رحمة لا يبالي بما يصدر عنها من أعمال قبيحة، وإلا فأي عقاب يردع الناس عن ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء، التي تهدم بنيان المجتمع، بنيان الله في الأرض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن هذا الإنسان بنيان الله ملعون من هدمه)
أي عقاب يردع أمثال هذا القاتل الذي ترك الديار تشكو من بناها، وتندب ساكنيها
أي عقاب يردع أمثاله ممن أيم النساء ويتم الأطفال وجعل الأمهات ثكلى، والآباء حيرى، اللهم لا شئ سوى القتل،
إن في قتل هؤلاء الأشرار حياة للمجتمع كما قال جل شأنه (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)[٤]

وكان

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي بتأخير وتقديم والنسائي (٢) البقرة (٣) المائدة (٤) البقرة

وكان العرب قبل ذلك يقولون (القتل أنفى للقتل)

نعم : إذا علم القاتل أنه لو قتل نفسا وعلم أنه لابد مقتول لا محالة، كف يده عن الفساد ورجع عن غيه، وهذا أمر مشاهد محس لا جدال فيه ولا امراء.

(تفسير قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

المفردات :

الوصية : التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ العقل في الأصل المنع والإمساك ومنه العقال الذي يشد به وظيف البعير إلى عنقه لحبسه عن الحراك سمي به النور الروحاني الذي به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية فهو يحبس الإنسان عن تعاطي ما يقبح، ويعقله على ما يحسن من الأفعال الحميدة والخصال المجيدة.

الإعراب :

الجملة استئنافية جيء بها تجديدا للعهد والمحافظة على ما كُلِّفُوه. واسم الإشارة لما ذكر من التكاليف الخمسة السابقة، ولعل بمعنى كي، ومعمول تعقلون محذوف للتعميم.

المعنى :

هذه التكاليف المذكورة في الآية الكريمة، وصاكم الله بها لما في ذلك من إعدادكم وباعث الرجاء في أنفسكم لكي تعقلوا ما فيه الخير والفلاح، من ترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به.

(الوصية السادسة النهي عن أكل مال اليتيم)

قال تعالى (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)

صلة الآية بما قبلها :

لما ذكر الله جل شأنه فيما سبق الوصايا الخمس وكانت أمورا ظاهرة واضحة جلية، يكفي في تعقلها أدنى التفات، وفي تفهمها أقل انتباه للعمل بمدلولها والقيام بموجبها ناسب أن يذكر بعدها وصايا أخرى، وهي تحتاج إلى شيء من الدقة والنظر والتدبر.

والتذكر ليقف العاقل على موضع العدل وموطن النصفة فيها. وابتدأ بالنهي عن أكل مال اليتيم لشدة أهميته.

المفردات: اليتم في الآدميين فقدان الأب قبل بلوغ الصبي.

الأشد: القوة وهي ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين. وهو مفرد جاء على بناء الجمع. كآنُك. ولا نظير لهما. أو جمع لا واحد له من لفظه أو واحده شِدَّةٌ بالكسر. والجمع على غير قياس أو مفرده شَدٌّ ككلب وأكلب، أو شد كذئب وأذؤب، وهذان قياسيان (القاموس المحيط) والمراد ببلوغ الأشد هنا بلوغ الحلم، حيث تكتب له الحسنات، وتكتب عليه السيئات.

الإعراب:

الجملة: عطف على ما قبلها، والخطاب للأولياء والأوصياء والاستثناء في قوله تعالى (إلا بالتي هي أحسن) مفرغ من عموم الأحوال إلا بالحال والخصلة التي هي أحسن الأحوال والخصال، وقوله تعالى (حتى يبلغ أشده) غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي.

المعنى:

لا تقربوا مال اليتيم إذا وليتم أمره أو تعاملتم به، ولو بواسطة وصيه أو وليه، إلا بالفعلة أو الأفعال التي هي أحسن ما تفعلون بمالكم من تثميره وتنميته وحفظه ومراعاة مصلحته، ولا بأس بالإنفاق من ماله على تربيته وتعليمه وتهذيبه، وما يصلح به معاشه ومعاده، والنهي عن القرب من الشيء أبلغ من النهي عن ذات الشيء ونفسه، لأن النهي عن قربانه يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل التي تؤدي إليه وتوقع فيه، وعن الشبهات التي تحمل التأويل، وقوله تعالى (حتى يبلغ أشده) غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهي، كأنه قال احفظوا مال اليتيم إلى بلوغه، فإذا بلغ فسلموه إليه، كما في قوله تعالى (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)(١)

(١) النساء

(واجب الأوصياء نحو اليتامى)

النفوس البشرية تميل بالطبيعة إلى الطغيان على من دونها في القوة والمنعة. فتغتصب ماله إن استطاعت، وتسلب حقوقه إن غفلت عنها أعين الرقباء.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد • ذا عفة فلعلة لا يظلم •

لذا شرع الله تعالى حدا لرد غائلة المعتدين، ودفع كيد الظالمين، ليأمن الضعيف على نفسه، فيعيش هادئا مطمئنا متمتعا بالحياة كغيره ممن له قوة وصولة. وأكبر مظهر من مظاهر الضعف والذلة، يتجلى فيمن مات أبوه وهو صغير قبل بلوغه سن الرشد، واستكمال العقل، وقوة الشكيمة. لا عائل له ولا معين، لم يترك له الدهر قلبا يرعاه كقلب أبيه، ولا عينا تسهر على مصلحته، ولا روحا ترفرف فوق رأسه أو تحنو عليه حنو الوالد. فهو في حاجة إلى من يرعاه، ويحفظ حياته وماله، لذلك تكفل الله بحفظه ورعايته، حيث أمر بالمحافظة عليه والعناية بشأنه وتربيته، فإذا بلغ سن الرشد وجب على الوصي حينئذ أن يدفع إليه ماله غير منقوص، ما دام قد بلغ الحلم رشيدا صالحا لحفظه، ونهى الوصي عن أن يأخذ الطيب ويعطي الخبيث، أو يأكل مال اليتيم مضموما إلى ماله، ومن يفعل ذلك فقد ضل ضلالا مبينا، واقترف إثما عظيما، قال تعالى: (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا)(١) •

أباح الله للوصي أن يأكل من مال اليتيم إذا اقتضت الضرورة ذلك من غير إسراف ولا تبذير، فيسد جوعته ويستر عورته. قال جل شأنه: (وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)(٢) •

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني فقير وليس لي شيء، ولي يتيم. فقال: كل من مال يتيمك غير مسرف

(١)،(٢) سورة النساء

ولا مبادر ولا متأثل مالا[1] ».

بين الله سبحانه وتعالى حكم الذي يأكل مال اليتيم ظلما بأنه سيعذب عذابا شديدا جزاء ما قدمت يداه. فقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2]

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أكل مال اليتيم من الموبقات، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وما هن، قال الشرك بالله .... إلى أن قال وأكل مال اليتيم »[3]

فعلى الأوصياء الذين أغواهم الشيطان وحبب إليهم أكل مال اليتامى، وانتهاك حقوق الضعفاء، أن يراقبوا الله تعالى، ويتدبروا آياته وسنة نبيه التي وردت في شأنهم، وليعلموا أن جريدة الحساب التي يقدمونها في كل عام للمجالس الحسبية، يثبتون فيها ما شاءوا ظلما وعدوانا، موهمين القضاء أن اليتيم أنفقها، وأنهم قد أدوا إليه حقوقه كاملة طول عامه، لتبرأ ذممهم أمام العدالة الدنيوية، فلا تحاسبهم الحكومة حسابا عسيرا، مع أن الله يعلم أن اليتيم لم ينل من ماله إلا النذر اليسير، ليعلموا أن صنيعهم هذا سوف لا يغنيهم من الله شيئا، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

فيأيها الوصي إن أفلت اليوم من عقاب الحكام واجتهدت في إخفاء جرمك، ولم يتبين لهم خبث طويتك وسوء عملك، فالله لا تخفى عليه خافية، إذ لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

هذا واجب الأوصياء نحو اليتامى الذين جعلهم الله أمانة في أيديهم. أما واجب المسلمين نحوهم عامة، فاليك ما يأتي.

﴿ واجب المسلمين نحو اليتيم ﴾

اليتيم فرد من أفراد المجتمع، وعضو من أعضائه، فقد أباه، وحرم من كان يحنو عليه ويرعاه ويسعى لسعادته وراحته، ويحفظه من كل ما يجلب عليه الشقاء أو يكدر عليه صفو الحياة، فهو في حاجة إلى من يهذب عقله، ويحفظ ماله، ويخفف عنه

مرارة

(١) الحديث أخرجه ابو داود والنسائي (٢) النساء (١٠) (٣) الحديث رواه البخاري

مرارة اليتم . لذلك حث الله تعالى المسلمين عامة على أن يعاملوا اليتامى بالرفق واللين والشفقة والرحمة كما يعاملون أولادهم وذراريهم ، ويدفعون عنهم العاديات وآلام الحياة ، وينمون أموالهم بالطرق المشروعة إن كانت لهم أموال ويرزقونهم من ثمراتها ، ويحفظون عليهم رأس المال مضموما إليه ما قد يزيد عن نفقاتهم .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ)(١)

الواجب على كل مسلم أن يهذب نفس اليتيم بالأدب ويحليها بمكارم الأخلاق حتى يكون عضوا صالحا في الجماعة الإنسانية ينفعها وتنتفع به .

* وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا *

فصلاح الجماعة إنما يكون بصلاح أفرادها ، وقوتها تكون بقوة أبنائها ، وتقدمها بتقدمهم ، ورفعة شأنها إنما تكون بما يبلغه هؤلاء من الرفعة والسؤدد .

وما اليتامى إلا طائفة قد يكون منهم العصامي الذي تسود به أمته ، وتبلغ على يديه مجدها ومكانتها ، وتتبوأ بين الأمم عظمتها .

لهذا نهى الله تعالى عن قهر اليتيم ومذلته ، والتعبس والتجهم في وجهه ، حيث قال : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

بل بالغ في ذلك بما هو أشد وأنكى (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ) يا سبحان الله ، أمن يدع اليتيم يعد مكذبا بالدين فما بال الناس لا يكادون يقهرون حديثا .

ولقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الرفق باليتيم والإحسان إليه ، وأخبر بأن من يكفل يتيما تكون منزلته عظيمة في الجنة ، حيث يكون قريبا منه عليه الصلاة والسلام فقد روى عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله ، كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات ، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين . وفرق بين أصبعيه السبابة والوسطى) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال

(١) البقرة

أن النبي صلى الله عليه وسلم رجل يشكو قسوة قلبه، قال أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك، ارحم اليتيم وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلن قلبك، وتدرك حاجتك »(١)

وقد ورد أن ما أصاب سيدنا يعقوب عليه السلام من فقد يوسف، وذهاب بصره وانحناء ظهره، كان من جراء أنه جاءه يتيم مسكين جائع، وقد ذبح لأهله شاة فأكلوها، ولم يطعموا ذلك اليتيم.

لو علم المسلمون ما في إهمال تربية اليتامى من الفساد والمضار على الأمة، لقدروا عناية الله بأمرهم في كتابه حق قدرها، ولبذلوا من وقتهم ومالهم في إصلاح حال الأيتام ما استطاعوا.

لو شعر كل مسلم بأن الموت أقرب إليه من حبل الوريد، وأنه هدف له في كل لحظة، وأنه سيترك أولاده، إما أغنياء قد يأكل مالهم الأوصياء، وإما فقراء قد يستذلهم من لا خلاق له ولا دين، لتسابقوا إلى تقويم شأن اليتيم، تسابقهم إلى اللذة والنعيم «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا »(٢)

وفق الله المسلمين إلى آداب دينهم، والعمل بما فيه، وهداهم صراطا مستقيما.

(الوصية السابعة الأمر بإيفاء الكيل والميزان)

قال تعالى «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا »

صلة الجملة بما قبلها.

لما نهى الله سبحانه وتعالى في الجملة المتقدمة عن أكل مال اليتيم وظلمه، ناسب أن يذكر بعدها الأمر بإيفاء الكيل والميزان، لأن كلتا الوصيتين لهما تعلق وارتباط بالمال، فقال جل وعلا «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ »

المفردات:

أوفوا: مشتق من الإيفاء، وهو الإتمام، يقال أوفى الشيء إذا أتمه وأوفى

(١) رواه الطبراني (٢) النساء

الكيل والميزان: إذا أتمهما، ولم ينقص منهما شيئا. والكيل: ما كيل به، والميزان ما وزن به.

القسط: العدل وهو مصدر كالعدل نفسه، يستوى فيه الواحد والجمع. والتكليف الإلزام بما فيه كلفة ومشقة. الوسع: الجهد والطاقة.

الإعراب:

الباء في بالقسط للملابسة، وهي وما دخلت عليه متعلق بمحذوف حال من فاعل.

أوفوا: أي أوفوهما حال كونكم متلبسين بالقسط، ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف حال من المفعول به، ولهو الكيل والميزان أي تامين، وقوله تعالى: (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) جملة مستأنفة جيء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل للترخيص فيما خرج عن الطاقة.

المعنى:

أمر الله سبحانه وتعالى عباده، ووصاهم بما هو خير لهم وتطهير لأنفسهم من الأنانية، وحب الذات، وهضم حقوق الغير بقوله: (أَوْفُوا الْكَيْلَ) إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم (وَالْمِيزَانَ) إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعونه، أو لغيركم فيما تبيعونه، فليكن كل ذلك كاملا وافيا (بِالْقِسْطِ) أي العدل، ولا تكونوا من المطففين (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) ينقصون الكيل والوزن، وهؤلاء الذين توعدهم الله وأنذرهم الويل والثبور في السورة المسماة باسمهم.

وقد طلب الله تعالى من المعطى أن يفي ذا الحق حقه من غير نقصان، وأمر صاحب الحق بأن يأخذ حقه من غير طلب الزيادة، وهذا ما يستفاد من قوله بالقسط فعلى الإنسان أن يرضى لغيره ما يرضاه لنفسه.

ولما كان الكيل والميزان يتعذر فيهما التحديد، وربما توهم الإنسان أنه يجب

عليه ذلك على التخفيف . وهذا صعب شديد في العدل . أتبعه الله تعالى بما يزيل هذا التشديد فقال ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾
أي ليس على الإنسان أكثر مما يتحراه باجتهاده في إيفاء الحقوق بالكيل والوزن ولا يطلب من المشتري أو البيع شيئًا من الأقوات ونحوها أن يزنه أو يكيله بحيث لا يزيد حبة ولا مثقالا . بل المطلوب منه أن يضبطها بحسب العرف بحيث يكون معتقدا أنه لم يظلم بزيادة ولا نقص .
ألا ترى أنه قد يكال الشيء أو يوزن ثم يعاد عليه الكيل أو الوزن فيزيد أو ينقص لا سيما فيما كثر مقداره . فمن رحمة الله تعالى على عباده أنه لم يكلفهم إلا ما هو واقع تحت قدرهم ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

(الترهيب من بخس الكيل والوزن)

أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان بالصدق والوفاء والأمانة وحذره من الغش والكذب والتدليس والخيانة وأعد ويلا عظيما ووعدا شديدا لمن يأكل أموال الناس بالباطل . لمن يبيع شيئًا فيسلمه للمشتري ناقصا . وإذا اشترى أخذه وافيا كاملا وهذا شأن كثير من التجار في هذا الزمن . فإنهم قد يتخذون لهما صاعين يكيلون بأصغرهما ويكتالون بالأكبر أو يكبسون المكيل ويحركون المكيال . ويحتالون في مثله إذا اشتروا . وإذا باعوا لم يفعلوا مثل ذلك . فهؤلاء هم الذين أنزل في شأنهم ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾
أولئك الذين غلبت عليهم شهواتهم . وملك عليهم حب المال أنفسهم فكفوا عن التفكير فيما هو خير لها وأجدى . نسوا الحساب والعقاب واليوم الآخر لديهم المال مباحا ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
إن الغش في الكيل والوزن إثم كبير . ولا يكون إلا من نفوس خبيثة طاغية

ولا يصدر إلا عن قلوب مظلمة فاسدة .

إن نقص المكيال والميزان سبب في قطع الرزق وضيق العيش كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه ابن عباس -

(ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب ولا فشا الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت - ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع الله عنهم الرزق . ولا حكم قوم بغير حق إلا فشا فيهم الدم . ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو)

وقد قص الله علينا فيما قص من أحوال الأمم المتقدمة . أن الله أهلك قوم شعيب بما كان من ظلمهم وفسادهم أموالهم ولا سيما التطفيف في الكيل والميزان حيث قال لهم رسولهم . (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

فكفروا بدعوته ولم يعملوا بوصيته . وقالوا له إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا لا فارق بيننا وبينك . وإن نظنك لمن الكاذبين (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

فهل آن للمسلمين الذين تركوا آداب دينهم . وتعاليم شريعتهم ففسدت أمورهم وقلت ثقتهم بأنفسهم . وحل محلها ثقتهم بالأجانب الطامعين فيهم أن يرجعوا إلى دينهم وسنة نبيهم فلا ينقصون الناس أشياءهم .

أصبح المسلم اليوم يترك تجارة أخيه المسلم . ويذهب إلى تجارة عدوه في الدين والملة . لأن التاجر الأجنبي اتخذ الصدق دينه في التجارة فرغب الناس فيه .

ولا تكاد تجد إلا القليل من المصريين الذين يستعملون الصدق في بيعهم . ويحافظون على ثقة معامليهم . بل الكثير منهم يسلك طرق الغش والخداع ظانين أنه سيجلب إليهم الربح الوفير . ولكن ما هي إلا أيام قلائل حتى ينصرف الناس عنهم وتغلق في وجوههم أبواب الربح . وتذهب البركة من بين أيديهم . وربما دارت عليهم أو على ذريتهم الدوائر .

أما آن لهم أن يفيقوا من غفلتهم، ويصلحوا من شئونهم عسى أن يعود للإسلام مجده الغابر وعزه وقوته.

أما آن لهم أن يعلموا أن الصدق والأمانة والوفاء حقيقة بالنسبة لهم، مجاز لغيرهم وأن أولئك الغير لم يبلغوا هذا المبلغ الذي بلغوه إلا باتباع فضائل الدين الإسلامي فيا قوم أحسنوا معاملتكم (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) واعلموا أن حسن المعاملة مع الناس وإيفاؤهم حقوقهم من الدين كما قال النبي (الدين المعاملة) نسأله جل وعلا أن يصلح قلوبنا، ويحسن أعمالنا، ويرزقنا سداد الرأي وصدق القول والإخلاص العمل.

ترغيب التجار في الصدق

قد وردت أحاديث كثيرة عن الصادق المعصوم تبين منزلة التاجر وفضله إذا أخلص في عمله وصدق في تجارته، ولم ينقص كيلا ولا وزنا، ولم يغش ولم يدلس.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)[1].

وروى عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن جده أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى، فرأى الناس يتبايعون فقال (يا معشر التجار فاستجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه فقال: إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق)[2]. فاللهم طهر قلوبنا، وهذب نفوسنا وارزقنا القناعة، حتى نعيد سيرة سلفنا الصالح رضي الله عنهم.

(الوصية الثامنة العدل في القول)

قال تعالى (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى).

صلة الجملة بما قبلها:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى قبل ذلك وجوب العدل في الكيل والميزان، وهما من الأفعال أردفه بالأمر بوجوب العدل في الأقوال كالشهادة والحكم، والدعوة إلى الدين

وتفسير

(١) (٢) الترغيب والترهيب للترمذي

وتقرير الأدلة. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولما كانت المحاباة والمجاملة لذوي القربى تكاد تكون خلقا لبني آدم حمية لأقربائهم. نبه الله سبحانه وتعالى الناس على أن العدل يجب أن يكون عاما لا فرق بين بعيد وقريب. فقال بعد الأمر بالعدل ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

المفردات.

العدل: المساواة في المكافأة أن خيرا فخير وإن شرا فشر. وهو ضد الجور.

ذا: بمعنى صاحب (القربى) وصف بمعنى القرابة. وهي تعم النسب والمصاهرة والرضاع.

الإعراب:

هذه الجملة معطوفة على التي قبلها. وهي مركبة من شرط وجوابه. ومعمول القول محذوف التقدير. وإذا قلتم قولا في حكومة ونحوها. ومعمول اعدلوا محذوف للعلم به تقديره اعدلوا فيه. أي في القول ولو بمعنى إن الشرطية. وفعل الشرط كان. والجواب محذوف دل عليه اعدلوا. وذا قربى خبر كان.

المعنى:

إن مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم أن تعدلوا في القول إذا صدر منكم في حكومة أو شهادة لإثبات حق لأحد على آخر أو في الدعوة إلى الدين والعمل بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. أو غير ذلك. ولا تجوروا بأن تحابوا أحد الفريقين وتنصروا أحد الخصمين على الآخر. أو تغيروا في الدعوة إلى الدين وتقولوا فيه بما تمليه عليكم شهواتكم. وتتوجه إليه رغبتكم فتنفروا الناس من الدخول فيه. وتشككوا المسلمين في عقائدهم. بل الواجب عليكم مراعاة العدل واجتناب الجور في كل قول تقولونه. ولو كان المقول له أو عليه ذا قرابة. فإن القرابة لا يصح أن تكون سببا في الجور والظلم. لأن الله لا يحب الظالمين.

وقد فصل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر في غير هذه الآية. حيث أمر المؤمنين بأن يبالغوا في العدل وإقامة القسط. في جميع الأمور مجتهدين في ذلك حق الاجتهاد

وأن يؤدوا الشهادة بالحق، ولو كانت الشهادة على أنفسهم. بأن يكون الشاهد عليه حق لغيره، أو كانت على الوالدين والأقارب. ولا فرق في أدائها بين غني وفقير. فلا يتقى رضا الغنى ولا تأخذه العاطفة على الفقير. فالله أولى بالفقير والغنى.

قال جل شأنه (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)(١). وإني سأذكر بعض ما يدخل تحت العدل.

(العدل في الدعوة إلى الدين)

الدعوة إلى الدين وما اشتمل عليه من مزايا وفضائل وأخلاق عالية، وآداب سامية، وتشريعات عادلة، من أهم الأمور التي بعث الله النبيين أجمعين، فهي من أفضل ما يدعو إليه المصلحون. لأن التمسك بتعاليم الدين هو الذي يرفع شأن النفوس الإنسانية، ويقي المجتمعات من الشرور والمضار. لذلك حث الله تعالى عليه كثيرا في كتابه الكريم. قال تعالى (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فإن هذه الآية دلت على أنه يجب على المسلمين أن تقوم طائفة منهم بوظيفة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظا للشريعة وصونا للأحكام(٢) وقال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الدعوة إلى التمسك بالدين، وأبان لنا أنه لا يكفي الإنسان أن يكون متدينا في نفسه بل عليه أن يحث الناس على التمسك بالدين، وإلا عمتهم البلوى، وأدركهم الهلاك. قال صلى الله عليه وسلم (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة

(١) و(٢) النساء

فصار

فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) (١) وقال «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» (٢).

فعلى من نصب نفسه لهداية الناس إلى طريق الحق ودعوتهم إلى الخير والرشاد أن يكون الحق قصده. والعدل رائده. فلا يدعوهم إلا بما فيه صلاحهم وحسن مآلهم بحيث لا يرتفع بهم في تقرير المسائل العلمية إلى ما فوق طاقتهم. فيظلمهم بتضييع أوقاتهم من غير فائدة تعود عليهم. وأن يقرر الحقائق العلمية مقيما الأدلة عليها خالية من الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة. معتادة قريبة من الأفهام. وألا يترك منكرا من المنكرات إعراضا عنه بل عليه أن يجابه بما وهبه الله من علم وقوة إيمان. فإن الله لعن بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنونه الله على مقته وغضبه.

فالعدل في الدعوة أساس النجاح. وسبب الفوز والفلاح.

(عدل الإمام)

عدل الإمام من أهم أنواع العدل وأعظمها قدرا. وأعلاها مرتبة. فبه يسعد المجتمع ويصلح الفرد. وترقى الدولة. وتبلغ أوج السعادة والرفاهية. فالإمام العادل لا يقصر في شيء من واجبه مع رعيته. ولا يدع شيئا مما يهذب عقولهم وأخلاقهم. ويقوي أبدانهم. ويحفظ عليهم أموالهم ودماءهم وأعراضهم.

فمن واجب الإمام أن يتحرى العدل بين رعيته فيما يصدره من قوانين ويتحرى العدل في تنفيذها. فلا يظلم بعض الرعية لمصلحة الآخرين. ولا يراعي مصلحة أقاربه وذويه دون مصلحة بقية الرعية. فإن هذا يؤدي إلى فساد المجتمع.

(١) الحديث رواه البخاري (٢) الترمذي

فالإمام مثله في الدولة كالقلب في الجسد، إذا صلح القلب صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد جميعه. لهذا كانت مسئولية الإمام عظيمة في نظر الشريعة الإسلامية وعلى قدر عظم المشقة يكون الثواب عند الله تعالى. لهذا كان للإمام العادل جزاء عظيم. حيث جعله الرسول عليه السلام على رأس السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله. وأحد الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم إذ يقول عليه السلام (ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر. والإمام العادل. ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام. ويفتح لها أبواب الجنان. ويقول الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين)[1] وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط موفق. ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى. ومسلم عفيف متعفف ذو عيال)[2]

(المثل الأعلى للإمام العادل)

روي أن سيدنا عليا كرم الله وجهه اختصم مع يهودي أمام سيدنا عمر (بن الخطاب) رضي الله عنه. فسوى بينهما وسمع مقالة اليهودي ثم قال قل يا أبا الحسن. فغضب سيدنا علي رضي الله عنه حتى ظهر الغضب في وجهه. فقال سيدنا عمر أغضبت يا علي لأني سويت بينك وبين خصمك اليهودي في مقام العدل. فقال لا والله ما غضبت لذلك. ولكن غضبت لأنك كنيتني فقلت يا أبا الحسن. فخشيت أن يظن اليهودي أنك حابيتني بمدح في مقام العدل. هكذا يجب أن يكون العدل. فلا يفرق الإمام بين المسلم وغيره. ولا بين الغني والفقير. والسيد والمسود. وهكذا فلتكن آداب المتقاضين.

(العدل في القضاء)

مهمة القاضي في المجتمع عظيمة. إذ هو الذي يحفظ على الناس أموالهم ويصون أعراضهم ودماءهم. فإذا عدل في مهمته. وراقب الله في كل ما يأتي ويذر. أمن الناس الأشرار. وعاشوا في هدوء واطمئنان. واشتغلوا بما فيه

(١) الحديث رواه أحمد والترمذي (٢) رواه مسلم

مصلحتهم فيرقى المجتمع، وتتهذب الجماعات والأفراد، ويأمن الفقير بطش الغني والغني ظلم القاضي. أما إذا جار القاضي ولم يعدل في حكمه فإن النظام يختل وتسود الفوضى ويضطرب حبل الأمن. لهذا كانت مسؤولية القاضي شديدة في نظر الإسلام.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)[١]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[٢] وقد ورد (إن الله يؤيد القاضي وينصره ما لم يجر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله مع القاضي ما لم يجر فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان)[٣]

فالقاضي الممدوح هو الذي يعرف الحق ويقضي به، ولا يألو جهدا في البحث عن كل الظروف والأحوال المحيطة بالخصوم. وأن يتنزه عن التحيز والميل مع أقربائه وأصدقائه، أو من تربطه بهم رابطة أو تجمعه معهم جامعة، وأن لا يحمله شنآن قوم وشدة بغضهم على أن لا يعدل بينهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[٤] سورة المائدة

فالقاضي يجب عليه أن يكون بالنسبة للمتخاصمين كالميزان المنضبط لا يميل مثقال ذرة إلى واحد منهم إلا بالحق، ومن لم يفعل ذلك فإنه يتحقق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من ولي القضاء أو جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين)

وقد كان قدماء الرومانيين يمثلون آلهة العدل بامرأة معصوبة العينين،

(١) الحديث رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه (٢) رواه مسلم والنسائي (٣) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه

ممسكة ميزاناً ذا كفتين بإحدى يديها، وسيفاً باليد الأخرى، يرمزون بعصب عينيها إلى أن العادل ينبغي أن يعمى عن الاعتبارات التي تجعله يتميز عن غيرهم كغنى وجاه، وبالميزان إلى أنه يجب أن يزن لكل إنسان حقه بالقسط، وبالسيف إلى أنه يجب أن يلجأ إلى القوة في تحقيق العدل عند الحاجة إليها.

(عادل الشهود)

الشهود مرآة القاضي، فيهم يرى الحق من الباطل والصدق من الكذب والظالم من المظلوم، فهم الذين ينيرون له الطريق، ويهدونه السبيل، فإذا ما تحيزوا وشهدوا زوراً، وضللوا القاضي وطمسوا عليه معالم الحق ضاعت الحقوق وخذل المظلوم في ساحة العدالة، وانتصر الظالم عليه، وحينئذ يعم الفساد وتكثر الفتن، ويرى المظلوم أن القضاء لا يرد عنه كيد الظالمين، ولا شر المستبطرين فيعمد إلى أخذ حقه بيده، وهنا الفساد المبين والشر المستطير، والخراب الذي لا يرجى بعده إصلاح. لهذا كانت مسئولية الشهود عظيمة عند الله تعالى وثوابها جزيل، وكان المؤدون لها حقاً من عباد الرحمن الذين مدحهم الله بقوله: (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا إلى أن قال. وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)(١) فهم ممن أعد الله لهم يوم القيامة منزلة عظيمة (أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا • خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)(٢)

والشهادة الحقة دليل على صقل النفس وقوة خضوعها لله وحده، كما هي دليل على الشجاعة الأدبية والشهامة المحمودة.

وقد حذر الله تعالى من شهادة الزور وقرن بينها وبين الإشراك في كتابه الكريم فقال تعالى: (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ).

وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله. قال الإشراك بالله، ثم عقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس

ثم

(١) (٢) سورة الفرقان ( )

ثم قال: ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)

وعن خريم ابن فاتك رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فلما انصرف قام قائما فقال (عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاث مرات)[1] ثم قرأ: فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به)[2] وإذا كانت شهادة الزور من الكبائر مطلقا لا فرق بين أن يكون المشهود له أو عليه مسلما أو كافرا فهي في حق المسلم آكد وأشد.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار) رواه أحمد

وليست الحرمة قاصرة على من أدى شهادة الزور بل وعلى من كتمها كذلك لأن كتمانها مضيع للحقوق، مفوت على القاضي سبيل الهدى والرشاد لذلك قال تعالى (وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)[3]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كتم شهادة إذا دعي إليها كان كمن شهد بالزور)[4]

فعلى المسلمين أن يعملوا بما في كتاب الله وسنة رسوله ليظفروا بالسعادة في الدنيا والآخرة، ويكونوا من الفائزين.

(عدل رؤساء الأسر والقبائل)

وعلى رؤساء الأسر والقبائل أن يتحروا إقامة العدل بين أبنائهم وذويهم ومن لهم عليهم سلطان ممن تحت نفوذهم، فإن عدل الرئيس يوجب استقرار المحبة والوئام بينه وبينهم من جهة، وبينهم وبين أنفسهم من جهة أخرى، فإذا عدل الرئيس كان مثالا صالحا، وقدوة طيبة يقتدي به الكبير، وينسج على منواله وطريقته الصغير، وبذلك يكتفون شر المظالم الداخلية والخارجية، فيحيون حياة طيبة، متمتعين بحب بعضهم لبعض، مقيمين العدل فيما بينهم.

(١) رواه أبو داود واللفظ له والترمذي وابن ماجه (٢) ... (٣) البقرة (٤) الحديث رواه الطبراني في الكبير والأوسط

أما إذا ترك الرئيس العدل، فإنه يكون شرًا ووبالًا على نفسه وعلى أهله وذويه، فتنتشر الفوضى، وتقل ثقتهم برئيسهم، ويحقد المظلوم عليه وعلى من ظلمه لأجله، فتنقطع بينهم أواصر المحبة، وروابط القربى وعلاقات المودة، ويسعى كل واحد في الإضرار بالآخر، فضلًا عما يسري لهم من خلعه الظلم، فيظلمون الناس ويفسدون في الأرض.

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من نيط به عمل مسئول عن العدل فيه، فليس العدل قاصرًا على القضاة والسلاطين، قال عليه الصلاة والسلام (كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته)(١) فهذا الحديث يدل على أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بقدر ما كلف به من عمل، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّ اللّه سائلٌ كلَّ راعٍ عمّا استرعاه حفظ أم ضيّع)(٢)

فهؤلاء جميعًا مسئولون عن العدل، فمن حفظه وأقامه فله جزاء الحسنى، ومن ضيعه فله سوء العقبى.

(الوصية التاسعة الأمر بوفاء العهد)

قال تعالى (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا)

صلة الجملة بما قبلها

ذكر الله سبحانه وتعالى في الوصية الثامنة إيجاب العدل في القول، ثم أردفها بالوصية المتعلقة بإيجاب الوفاء بالعهد، لأن العهد يكون قولًا والوفاء به عدل، فناسب أن يذكر هذه الوصية بعد التي تقدمتها.

المفردات:

العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالًا بعد حال، والإيفاء: الإتمام.

الإعراب:

هذه

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم (٢) رواه ابن حبان في صحيحه

هذه الجملة معطوفة على ما قبلها، والجار والمجرور متعلق بقوله: أوفوا، وتقديم الجار والمجرور للاعتناد بشأنه.

المعنى:

يأمر الله جل شأنه عباده بالوفاء بالعهد وحفظه ومراعاته، والعهد يشمل ما عهده الله إلى الناس على ألسنة رسله عليهم السلام، وما يعاهد الناس عليه، وما يعاهد عليه بعضهم بعضا في العهد موافقا للشرع، فكل ما وصى به الله تعالى وشرعه للناس فهو مما عهده إليهم، وإذا التزم الإنسان عملا من أعمال البر بنذر أو يمين فقد عاهد ربه، ووجب الوفاء به ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (١)

فإذا نقضه ولم يوف بعهده فقد غدر وخان، قال تعالى في حق المنافقين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (٢)

ومن بايع الإمام وعاهده على الطاعة والامتثال فيما عرف شرعا وجب عليه الوفاء بذلك، وإن جار الإمام أو ظلم، ورد عن أبي هنيدة وائل بن حجر رضي الله عنه قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه ثم سأله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم) (٣) بل المسلم مطالب بأن يدافع عن إمامه الذي عاهده، ولضرب عنق من تعدى عليه.

جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله (من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر) (٤)

وكذا إذا عاهد المرء آخر بأمر وجب عليه الوفاء به، ما دام في حدود

(١) الإسراء (٢) التوبة (٣) الحديث رواه مسلم (٤) رواه مسلم

الشريعة الإسلامية . وقد جعل الله سبحانه وتعالى الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين فقال جل شأنه (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)(١)

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الغدر من صفات المنافقين . روى عبد الله ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) متفق عليه

(الوفاء بالعهد سبب في تقدم العمران)

إذا اشتهرت أمة من الأمم بالوفاء بالعهد والصدق في الوعد أصبحت محبوبة عند جميع الأمم ، موثوقا بها ، فيسهل عليها قضاء مصالحها ، وتصديق محصولاتها ، ونشر علومها وآدابها ومعارفها ، فيتسع أمامها أفق الحياة وتصبح مجدة عاملة ، تنظر إليها الدول نظرة إجلال وإكبار ، وبذلك تعيش مكرمة عزيزة الجانب تخطب ودها وتسعى لصداقتها ، وتكون رفيعة القدر عظيمة المنزلة بين سائر الشعوب . أما إذا كان الغدر ديدنها ونقض العهود والمواثيق عنوانها وشهرتها ، فإن الأمم تنصرف عن صداقتها وتخشى شرها وأخطارها ، ويكون الناس منها على حذر ، ينفض من حولها أعوانها وحلفاؤها ، فلا تجد لها ناصرا ولا معينا ، وتنقطع معاملة الدول لها فتكسد تجارتها وتبور صناعتها ، وتموت علومها ومعارفها ، وتصبح من شر الشعوب ، قد خسرت شرفها وعزتها ، ومكانتها وثروتها ، وذلك هو الخسران المبين . وكذلك الأفراد من كان وفيا منهم تبوأ من نفوس الناس أحسن مكانة وأجل منزلة ، ووثق الناس به في كل شأن من شئونهم ، فتتسع أمامه سبل الرزق وتفتح له أبواب الخير ، فينفع نفسه وينتفع به غيره ، ويقوم بأداء وظيفته في الحياة كاملة خير قيام ولا شك أنه إذا قام كل فرد بالوفاء بعهده ، وحافظت الأمم والشعوب

على

(١) سورة البقرة

على العهود والمواثيق، لنشر السلام لواءه، ورفع رايته، وأصبحت كل أمة مشغولة بداخليتها وما يصلح شأنها، فتتقدم الأمم وترقى الشعوب ويمتد العمران.

ولما كان الإيفاء بالعهد فيه فلاح وسعادة للفرد والمجتمع. جاء القرآن حاثا على ذلك في غير ما آية. قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)(١) والعقد هو العهد الموثق، وهو يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقد عليهم من التكاليف والأحكام الدينية وما يعقدونه من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها.

وقد شبه الله الذين ينقضون العهود بامرأة حمقاء تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه قال تعالى (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ)(٢)

فمتى يستيقظ العالم من غفلته ويؤوب إلى رشده، ويرجع إلى كتاب الله ليتعلم منه ما فيه صلاحه وسعادته، فيستغنى به عن البحث في إيجاد غازات سامة والتفنن في مواد الهدم، والتجربة التي تقذفها الطائرات المحلقة في جو السماء على المدائن الآمنة المكتظة بالألوف والملايين من الرجال والنساء والأطفال فتقضي عليهم في ساعة أو بعض ساعة، وتترك المدائن والقرى خاوية على عروشها لا ساكن بها ولا أنيس.

أجل، لو رجعت الأمم إلى القرآن واتخذته نبراسا، وقانونا لوجدت فيه المخرج والسلامة من هذا الخطر الداهم، ولعلموا أن الإسلام هو دين الحق والعدل والسلام.

(تفسير قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

صلة الجملة بما قبلها

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فيما تقدم هذه الوصايا الأربع، وكانت مشتملة

(١) المائدة (٢) النحل

على كثير مما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، لو عمل بمقتضاها وتمسك بآدابها وتحرى الحكم الجليلة والفوائد العظيمة ، أكد إيجاب المحافظة على ما كلفهم به باللفظ الذي يقرب إلى القلب القبول ، فقال ذلكم وصاكم به لما في هذا من اللطف والرحمة ، ليكون المكلف أقرب إلى القبول ، ولما كانت الوصايا الأربع أمورا خفية دقيقة تحتاج إلى التدبر والتذكر ختم الآية بقوله لعلكم تذكرون

المفردات :

الوصية : التقدم إلى الغير بما يعمل به ، مقترنا بوعظ لعل بمعنى كي تذكرون : بالتخفيف والتشديد بمعنى التدبر والاتعاظ ، وقال بعضهم تذكرون بالتخفيف من الذكر بالتشديد من التذكر وليس معناهما واحدا فإن الصيغ التي تكون من مادة واحدة تدل على معان متعددة ، فالذكر يطلق في الأصل على إخطار معنى الشيء أو خطوره في الذهن ويسمى ذكر القلب وعلى النطق باللفظ الدال عليه ، ويسمى ذكر اللسان ويستعمل مجازا بمعنى الصيت والشرف وفسر به قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وبمعنى العلم وبه يسمى القرآن وغيره من الكتب الإلهية ذكرا .

وأما التذكر فمعناه تكلف ذكر الشيء في القلب أو التدرج فيه بفعله المرة بعد المرة ، ويطلق على الاتعاظ ، ومنه قوله تعالى (وما يذكر إلا أولو الألباب)

الإعراب :

اسم الإشارة مبتدأ وهو راجع إلى ما تقدم من الوصايا الأربع السابقة ، والإشارة إليها لوضوحها وظهورها ، وبيانه منا فصلها بيانا بلغ رتبة المحسوس ، وأتى باللام الدالة على البعد لبعد منزلة هذه الوصايا وعظم قدرها ورفعة شأنها ، والجملة استئنافية لا محل لها من الإعراب ، وجملة لعلكم تذكرون تعليل للوصية .

المع...

المعنى : ذلكم المتلو عليكم من التكاليف المتقدمة، وصاكم الله وعهد اليكم القيام بها لما فيها من الأوامر والنواهي البعيدة مدى الفائدة الكثيرة المنفعة لمن قام بها. وصاكم الله بها في كتابه كي تذكروا في أنفسكم ما فيها من الصلاح لكم فيحملكم على العمل أو يذكره بعضكم لبعض في التعليم والتواصي الذي أمركم الله به في مثل قوله (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

أو كي تتذكر ما فيها من المصالح والمنافع من كان كثير النسيان والغفلة والشواغل الدنيوية. أو تتذكر المرة بعد المرة من أداء الانتفاع بها والاتعاظ بما فيها ليجزي الجزاء الأوفى. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)

(الوصية العاشرة اتباع الصراط المستقيم)

قال تعالى (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)

صلة الآية بما قبلها.

لما ذكر الله سبحانه وتعالى قبل هذه الآية ما يجب على الإنسان أن يقوم به وما هو محرم عليه لا يصح منه أن يأتيه أو يقربه. أعقبه بوصية جامعة لما تقدم ولغيره فقال (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ).

المفردات : الصراط . الطريق المستقيم . السبل جمع السبيل . وهو الطريق يذكر ويؤنث . قال تعالى (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي) وقال (وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شيء خيرا كان أو شرا . قال (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ) وقال (وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) والمراد بالسبل هنا جمع السبيل الذي يصل بصاحبه الى الشر بدليل النهي عنه . الاتباع . الاقتداء . التفرق . ضد الاجتماع . السبيل . الطريق الذي فيه سهولة . والمراد بها هنا

التكاليف الشرعية بدليل إضافته إلى الضمير العائد إلى الله ، وأفرد الصراط المستقيم وهو سبيل الله وجمع السبل المخالفة له لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير .

الإعراب :

هذه الجملة معطوفة على ما قبلها على قراءة فتح الهمزة وتشديد النون وأن هذا صراطي متعلق بقوله فاتبعوه على تقدير لام التعليل . والمعنى والأجل أن هذا صراطي مستقيما لا عوج فيه عليكم أن تتبعوه إن كنتم تفضلون الطريق المستقيم الذي فيه الخير والنجاة على المعوج المهلك وترجحون سبيل الهدى والرشاد على الغي والضلالة . وقوله مستقيما حال والعامل فيه اسم الإشارة لأن فيه معنى الفعل والضمير في قوله فاتبعوه يعود على الصراط والإضمار فيه حيث تقدم لفظا وقوله (فتفرق بكم) منصوب لوقوعه في جواب النهي والأصل تتفرق فحذفت إحدى التاءين والباء للتعدية أي فتفرقكم حسب تفرقها . وأما على قراءة كسر إن فيكون الكلام مستأنفا لبيان وصية عظيمة جامعة لما قبلها ولغيرها من الوصايا .

المعنى :

إن هذا الذي أدعوكم إليه وأحثكم على اتباعه وسلوك طريقته هو السبيل التي تعبدكم الله بها عباده . وأمرهم باتباعها واقتفاء أثرها وسلوكها والعمل بما فيها من التكاليف . فالإشارة إلى الشريعة الإسلامية .

أو إن هذا الذي أدعوكم إليه من الدين الحنيف الذي تنبنى عليه صروح السعادة ، وتشاد على قواعده بروج الهداية بما تلوته عليكم في هذه السورة التي اشتملت على هذه الوصايا التي لا يكابر في حسنها وفضلها . فالإشارة إلى السورة .

أو إن : هذا القرآن الذي أدعوكم إلى اتباعه وأدعوكم به إلى

ما يعلم

ما يهديكم لهو صراطي وسبيلي. الذي أسلكه إلى مرضاة الله عز وجل ونيل السعادة الدنيوية والأخروية. وهذا هو الصراط المستقيم الذي لا يضل قاصده. ولا يهتدي تاركه.

أدعوكم إليه حال كونه مستقيماً. وطريقاً إلى الثواب في الجنة فاتبعوه وحده. ولا تتبعوا السبل الأخرى. وهي كثيرة متشعبة الأطراف والنواحي فتفرقكم. بحيث يسلك كل واحد طريقاً من طرق الضلالة تنتهي به إلى الهلكة. إذ ليس بعد الحق إلا الباطل. وليس بعد الهدى إلا الضلال. وليس أمام تارك النور إلا الظلمات. وأضيف الصراط إلى النبي صلى الله عليه وسلم أولاً لأنه أدعى إلى الاتباع وبه يتضح كونه صراط الله عز وجل لأنه المأمور باتباعه سبيل واحد. ولذا أضيف السبيل إلى الله آخراً.

(ما الصراط المستقيم)

ضرب ابن مسعود رضي الله عنه مثلاً للصراط المستقيم ولبيانه ما في الإسلام من نفع عميم وخير عظيم. وما ينتهي إليه من سعادة أبدية. وما هو خارج عن حدوده من زيغ وانحراف. حينما سأله رجل - ما الصراط المستقيم. قال تركنا محمد في أدناه وطرفه في الجنة. وعن يمينه جوادّ وعن يساره جوادّ. وثم رجال يدعون من مر بهم. فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة) ثم قرأ ابن مسعود (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) وابن مسعود أخذ هذا المثل. وشرحه وبينه مما خطه النبي صلى الله عليه وسلم ورسمه بيد النبوة. روى أحمد والنسائي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ثم قال هذا سبيل الله مستقيماً ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ (وَأَنَّ هَٰذَا

صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)
فالسبيل المستقيم هو الوسط، من سلكه فاز بمرغوبه ونال مطلوبه. وأما
الخطوط التي عن اليمين وعن الشمال فهي كالجبال التي تحت الوادي المعبد والطرق
المسلوك، التي لا يسلكها إلا من شذ وانحرف عن الطريق المستقيم، واتبع
هواه وكان أمره فرطا، وأجاب دعوة هؤلاء الشياطين الذين يوحون إليه
زخرف القول غرورا، ليصدوا به عن طريق الاستقامة أو يردوه عن دينه
إن استطاعوا. روى أحمد والترمذي والنسائي عن النواس بن سمعان
رضي الله عنه مرفوعا (ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعن جنبتي الطريق
سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب
الصراط داع يقول: أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا،
ولا تتفرقوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح
شيئا من تلك الأبواب قال له: ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه.
فالصراط: الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله،
وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ
الله في قلب كل مسلم). وهذا الواعظ هو ما يعبر عنه الناس بالضمير والوجدان
لهذا: وسبيل الله وصراطه واحد وما عداه كثير، فيشمل الأديان الباطلة
من مخترعة وسماوية محرفة، والبدع والشبهات وسائر المعاصي.
والتفرق في صراط الحق وسبيله. فإن التفرق في الدين الواحد هو
جعله فرقا وشيعا، ومذاهب يتعصب لها البعض، ويخالفهم الآخرون
ويرمي كل حزب الآخر بالجهل والضلال أو الكفر أو الابتداع أو الفسوق
إلى غير ذلك مما هو شائع ومنتشر اليوم بين أبناء الدين الواحد بل والبلد
الواحد. فترى فريقا منهم يعتقدون في أنفسهم أنهم حماة السنة وأن
من عداهم من الأمة مبتدعة فلا يخالطونهم ولا يصلون في مساجدهم

بل يتخذون لهم مساجد خاصة لعباداتهم واجتماعاتهم وعلى غرار ذلك مشايخ الطرق فإن كل واحد له حزب وأنصار يتغنون باسمه ويخضعون لقوله ويشيدون بذكره وربما طعنوا على غيره ليبالغوا في حفظ قوله وأوراده تاركين كتاب الله وسنة رسوله فلا حول ولا قوة إلا بالله

إن المسلمين في حاجة إلى من يجمع كلمتهم ويولي وجوههم شطر كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ويبين لهم ما فيهما من فضائل ومزايا وينبئهم أن القرآن هو الذي أحدث في نفوس متبعيه العزة والكرامة والشجاعة والإباء والحمية والنجدة ومحا عن قلوبهم الذلة والمهانة والخور والضعف والجبن وجمع كلمتهم ووحد جبهتهم حتى أصبحوا بتمسكهم بعروته الوثقى وحبله المتين أقوياء تهابهم الأمم وتخافهم الشعوب عسى أن تجتمع كلمة المسلمين ويعود لهم نفوذهم وسلطانهم حتى يتخلص العالم مما هو فيه الآن من عسف وجور وفساد وفوضى إن القادة والمصلحين إلى العمل على نشر الإسلام وإسعاد المسلمين

معنى قوله تعالى (ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

ذلكم الأمر بالصراط المستقيم الذي لا عوج فيه ولا أمتا والنهي عن سبيل الضلالات والأباطيل المعوجة وصاكم الله به ليعدكم ويهيئكم لما يرجى لكل من اتبعه من اتقاء ما يشقيه ويوقعه في الردى قال أبو حيان ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر سبحانه وتعالى باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية

(وجه ختم الآيات بما ختمت به)

ختم الله سبحانه وتعالى الآية الأولى بقوله (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) لأن القوم كانوا دائبين على الشرك مستمرين على قتل الأولاد وقربان الزنا وكانوا يشنون الغارات لأتفه الأسباب فيقتلون الأنفس البريئة بغير حق لا يستنكفون

ولا يترفعون عن قبح مثل هذه الأمور ولا يعقلون فساد ما هم عليه فناهم
سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها
وأما حفظ أموال اليتامى وإيفاء الكيل والعدل في القول والوفاء بالعهد
فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون
إن عرض لهم نسيان أو اعترتهم غفلة والإحسان بالوالدين وإن كان من
قبيل القسم الثاني إلا أنه لما ذكر أعظم النعم على العبد وهو نعمة الله تعالى
وكانت نعمة الوالدين تليها لأنهما المؤثران في الظاهر وقد حفظاه من الضياع
والهلاك في الصغر وحيث أنهم لم يرتكبوا الكفران فبطريق الأولى لا يليق
بهم ارتكاب الكفر لذا ذكر الإحسان بالوالدين في القسم الأول
ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع لكل التكاليف الشرعية والنهي عن اتباع
السبل يعم كل ما كان خارجا عن ذلك ختم الآية الثالثة بالتقوى لأن المتقي
جعل بينه وبين النار وقاية وحاجزا
وقال الإمام الرازي السبب في ختم كل آية بما ختمت به أن التكاليف الخمسة
المذكورة في الآية الأولى ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها والتكاليف الأربعة
المذكورة في هذه الآية الثانية أمور خفية غامضة لابد فيها من الاجتهاد
والفكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال وهو التذكر
وقال الألوسي ويمكن أن يقال إن أكثر التكليفات الأول أدى بصيغة
النهي وهو في معنى المنع والمرء حريص على ما منع فناسب أن يعلل الإيصاء
بذلك بما فيه إيماء إلى معنى المنع والحبس وهذا بخلاف التكليفات الأخر فإن
أكثرها قد أدى بصيغة الأمر وليس المنع فيه ظاهرا كما في النهي فيكون تأكيد
الطلب والمبالغة فيه ليستمر عليه ويتذكر إذا نسي فليتدبر
ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع لكل التكاليف الشرعية والنهي عن اتباع
السبل يعم كل ما كان خارجا عن ذلك ختم الآية الثالثة بالتقوى لأن المتقي

يجعل بينه وبين النار وقاية وحاجزا

(خاتمة في فضائل هذه الآيات)

أخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال من سره أن ينظر إلى وصية محمد التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ. إلى قوله لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ثم تلا (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إلى ثلاث آيات ثم قال فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه وأخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن علي بن أبي طالب قال لما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا معه وأبو بكر وكان أبو بكر رجلا نسابة فوقف على منازلهم ومضاربهم بمنى فسلم عليهم وردوا السلام وكان في القوم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق وكان مفروق قد غلب عليهم بيانا ولسانا فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له إلام تدعوا يا أخا قريش فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله وأن تؤوني وتنصروني وتمنعوني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد قال له وإلام تدعوا أيضا يا أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا إلى قوله تعالى تَتَّقُونَ) فقال له مفروق وإلام تدعوا أيضا يا أخا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) الآية فقال له مفروق دعوت والله يا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك وقال هانئ بن قبيصة قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ويعجبني ما تكلمت به ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن لم تلبثوا إلا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم يعني أرض فارس وأنهار كسرى ويفرشكم بناتهم أتسبحون الله وتقدسونه فقال له النعمان بن شريك اللهم وإن كان ذلك لك يا أخا قريش فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا[1]) ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضا على يد أبي بكر

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب وهن محرمات على بني آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار

اللهم اجعلنا من العاملين بكتابك المستمسكين بسنة رسولك المنتفعين بما علمتهم وآتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا إنك أنت الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين آمين

تمت بحمد الله وحسن توفيقه

(١) سورة الأحزاب

الفهرست

رقم الصفحة	الموضوع
١	كلمة الافتتاح
٢	الآيات الكريمة
٣	وجه اتصال النظم الكريم بما قبله
٤	المفردات في قوله (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم
٥	الأعراب
٥	المعنى
٥	الوصية الأولى النهى عن الإشراك
٥	الأعراب
٦	المفردات . المعنى
٧	دعوة الرسل إلى التوحيد
٨	نوح عليه السلام
٩	هود عليه السلام
١٠	صالح " "
١١	ابراهيم " "
١٣	حالة العالم قبيل الإسلام
١٨	طريقة الإسلام في الدعوة إلى التوحيد
٢١	التوحيد في الكتب السابقة
٢٢	التوحيد دين الفطرة

فهرست

فهرست

فهرست

فهرست

تمت بحمد الله

